البطل الأعظم

محمد علي الكبير

الناشر

دار الفكر الحديث للطبع والنشر

١٠ شارع قيت المالية

دار الكتب والوثائق القومية (٨٥٦ د ك)

مراقبة

عنوان الكتاب

الفن أو الرمز الرقم

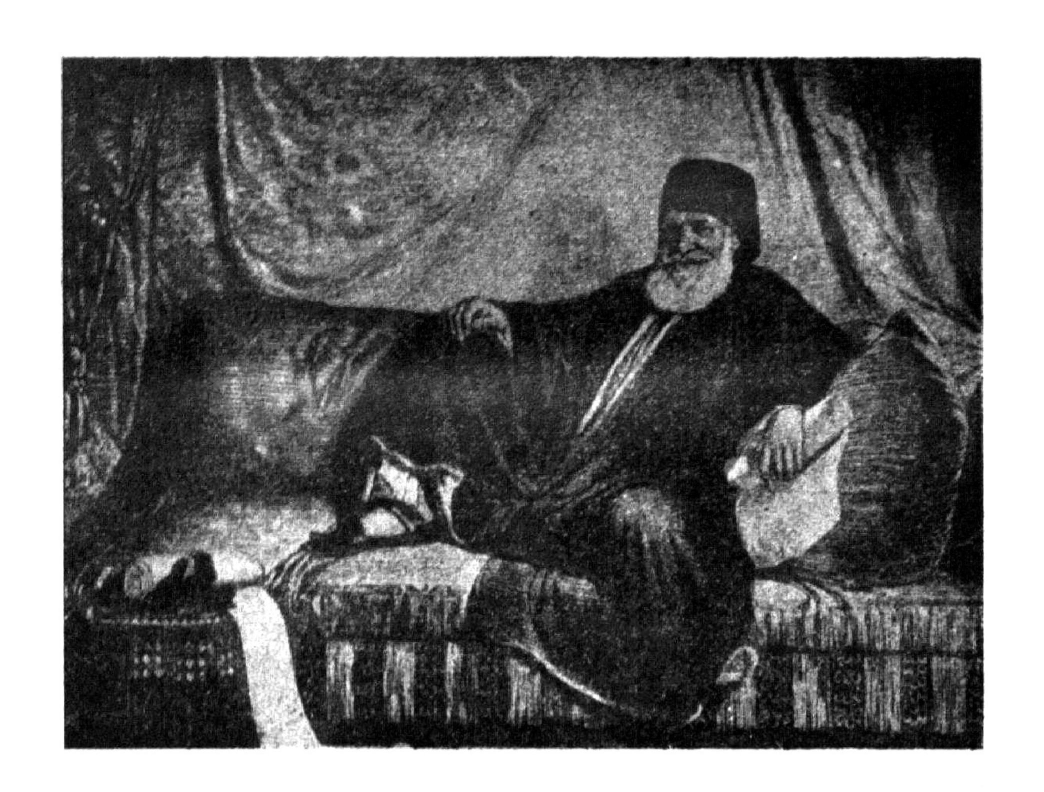
رقم المستعير	التاريخ الواجب إعادة الكتاب فيه	رقم المستعير	التاريخ الواجب إعادة الكتاب فيه



حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول

البطل الأعظم

محمد على الكبير



« وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب »

(قرآن شريف)

بقلم

اسكندر عزيز

بوزارة المالية

دار الفكر الحديث للطبع والنشر

١٠ شارع خيرت المالية

هدية الكتاب

إلى



حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول

أتشرف بأن أرفع إلى مولاى الأعظم خير قصة استملاها القلم من وحى وجدان حىّ . توارث من جد لأب . ومن أب لابن . إلى أن تركز فى أعماق قلبى . ثم نضح القلب بوجدانه . فتقطر على صفحات كتابى .

كتاب أخلاقى . أشدت فيه بمثل عليا استوحاها القلم من كتاب سماوى حوى من الكلام الحيوى الحىّ ما لا ينفد ما نفدت فى الأرض بحار . ولا ينضب ما نضبت فى السماوات أنوار « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم » .

مثل عليا درجت ببطل كريم منذ طفولته . وتطوّرت به فى مجال الحياة حتى بلغت ذروتها . وهو ما زال فى عز فتّوته . وقد كانت الكلمة الجليلة والبيئة النبيلة والطبيعة الجميلة الأثافىّ الثلاث التى نضجت عليها عبقريته .

ما كتابى هذا بسفر تاريخى مقتبس من مؤلفات التاريخ التى ازدحمت بها

رفوف مكاتبنا حتى كادت تنهار بها . وإنما هو رسالة متواضعة نسجها الخيال عن أحاديث الأمهات والآباء والأجداد للأبناء والأحفاد . دارت حول سيرة طفل كريم . رفعته الخلال الحميدة . والجبلات القويمة . حتى أصبح جديراً باعتلاء أمجد الأرائك . وارتقاء أعرق العروش .

ولقد أباح الوجدان للقلم عدم التقيد بالحقائق البحتة . وأطلق له حرّية التروّض فى مجال الخيال . حيث ينسج ديباجة قشيبه لحمتها الجمال . وسداتها الكمال . لعلها أن تكون لأبناء الوطن خير مرجع يهذب النفوس . ويذكى وطنيتها . ويثير حميتها . ويحيى فى قلوبهم الفضيلة والإيمان . والحزم والإقدام . تلكم المثل العليا التى تعينهم على تقويم خلقهم . إسعادا لأمتهم . وإنهاضا لدولتهم .

«فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا»

تلكم المثل العليا التى تجمعت وامتزجت ونضجت وأزهرت وأثمرت . فكوّنت شخصية طيبة نمت فى موطن القائد المقدونى . وتحلت وزهت . ثم عبرت البحر الرومى وعلى ضفاف النيل تجلت وانجلت .

بزغ النجم فى الشمال زاهيا . ثم يمم إلى الجنوب هاديا . فانطلق بطله إثره يستقل على اليم فلكا . ويمم إلى مصر حيث يستقل ملكا .

استقر على ضفاف نيله . إستقرار سيدنا إبراهيم فى أرضه المباركة . واستتلى آية ربه «رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام». فاستجاب ربه دعوته . وجعله فى مصر آمنا مطمئنا وجنبه وبنيه عبادة الأصنام والسلاطين الكرام . وعبدوا الله ربّ الأنام . وإذا ما أسكن أسرته بواديه ذى الزرع الوفير الطيب . والصعيد الخصيب ذى الفيض الصيب . وقال لذويه الأبرار المخلصين «أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين» .

رفع عينيه إلى ربه وتلى « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

سكنوا مصر . وأقاموا بها حجّة بعد حجّة . ثم استوطنوها جيلا بعد جيل . وأخلصوا لها . واتقوا ربهم فرزقهم من ثمرات أرضها . ثم هويت إليهم أفئدة أهلها . فاندمجوا جميعاً أمة واحدة فى وطن واحد . وأسبغ الله عليهم من نعمه . . . سعدوا فشكروا وكانوا من المفلحين .

استتبّ سلطان « البطل الأعظم » . وامتدت أفنان ملكه من منابع النيل إلى مصبّيه . وأورفت على روافده وقطريه . وإذا ما تساءل غرماؤه « إنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت وسعة من المال » . فكأنى بنبي لهم يجيبهم « إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم » .

ومازال أبناؤه وأحفاده الأمجاد ـ إبراهيم وسعيد وإسماعيل وفؤاد ـ يتوارثون عرشه العتيد . إلى أن تبوأه « الفاروق » ذو الملك المجيد . والحكم السديد والعهد السعيد . فمد أركانه . وشد بنيانه .

توارثوا عرش مصر ماتوارث آبائى الإخلاص له ولها . وقد كان جدى الأكبر « الحكيم » وأخوه « الكاشف » فى مقدمة الذين تفانوا فى خدمة مصر والولاء « لعزيزها الأعظم » . ثم مات « الحكيم » . فخلفه ابنه فى المعية السنية للعزيز تابعاً أميناً . ثم توالت عليه عهود ساكنى الجنان إبراهيم وسعيد وعباس واسماعيل وتوفيق . وقد أشاد بمآثرهم فى كثير من أحاديثه ومذكراته . وقد عثرت فى مخلفاته على قصيدة فرنسية رفعها المغفور له اسماعيل الخديوى العظيم بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال « البطل الأعظم » بالاسكندرية . ثم تقاعد وتوفى عن أبى الذى خــدم القضاء بإخلاص

ووفاء . وكان فيه خير قدوة لإخوتي . تغمدهم الله جميعاً برحمته .

أما أنا فقد كان نصيبي ضئيلا فاشلا من حكومتي . رغم التضحية والتفاني . وكان نصيبي من وطنيتي كتابي هذا « البطل الأعظم » . ساهمني في وضعه ابني . وقبيل إتمامه سقط الإبن مستشهداً في ميدان العلم والعمل . فأضنى الأسى قلبي . وأحنى الحزن كاهلي . وكاد الكتاب يدرج في عالم النسيان . لولا أن أخذت ابنتي بذراعي مترفقة تحثني على المضي فيه . لعله « مولاي » أن يجود بتقبله ذكراً طيبا أخلد فيه وفاء الاباء والأجداد . لأفراد الأسرة العلوية الأمجاد . أؤيد فيه توارث هـــذا الوفاء حتى بلغ طيات قلبي . وانطلق بطبيعته على صفحات كتابي . ميمما إلى أعتاب سليلها الأكرم . « فاروقنا الأعظم » . الملك الرفيع الأدواح . المفدى بالمهج والأرواح .

ملك فتيّ . حكيم زكيّ . حليم وفيّ . ورع نقيّ . كريم تقيّ . عطوف صفيّ . على جيوشنا ومصانعنا مشرف وعلى مجامعنا ومعاهدنا مشرق . على مضاجعنا مورف . وعلى مناجعنا مورق . على مواجعنا مشفق . وعلى مجائعنا مغدق

ملك أمين . رزين رصين . أزال رفثنا . ولمّ شعثنا . وحد صفوفنا . وثبت قلوبنا . بدد جهلنا . وسدد علمنا . دعم إيماننا . وأفعم كمالنا . وأرغم أعداءنا . وأنعم عزنا . . وهاهو بين أظهرنا . يعمل في سبيل إسعادنا . وتجديد مجدنا . ورفاهية أمتنا . وعظمة دولتنا .

اللهم أشدد ملكه . واسدد حكمه . وأسعد عهده . وأفعم سعده . ودعم مجده . إلى أمد بعيد . وعمر مديد .

اللهم حقق لنا مبتغاه . وأجزل عليه متمناه . كي يحقق لنا حكيم نواياه . ويجزل علينا كريم عطاياه .

مقـــدمة

أأذكرت نفسك ما ان يعودا فهاج التذكر قلبا عميدا

* * *

استقر بنا المجلس . حيث الطنافس وثيرة والثريآت منيرة . وقد ترأسته أمي كعادتها فى مساء كل يوم .

استمعنا لحديثها . وكان شيقاً طريفا . لا يتطلب التفكير فيه بذلا . ولا التجديد عناء . وقد أثارت ذكرياتها . بعد أن تقادم عهدها . وتعادم مهدها . فوعينا سيرا قيلت عافية . ووعبنا عبرا خيات خافيه . كشفها الحديث — وبدّد عنها السحب . وأبرزها الذكر — وشتت عنها الغيوم . فأصبحت حديثة . كأنها من حوادث يومنا . وكأن أبطالها ما زالوا أحياء بيننا .

نذكرهم فى جلستنا الوثيرة . وضجعتنا القريره . فيثير الذكر أشجان القلوب الحزينة على أبطال ذهبوا . وكأنهم لم يكونوا — لولا ما خلفوا من ذكريات . وتركوا من خيالات .

نذكرهم . فتهيم أرواحنا فى الماضى البعيد . والعهد السعيد . ويختلط الحزن بالفرح . ويمتزج الضحك بالبكاء . ويفوز الراوى والسامع على السواء . بلذة لا تفوقها لذة الفرح المجرد من الأحزان . فيدفع الرضا الحاكى إلى المضى فى الإلقاء . ويشوق السامع إلى المضى فى الاصغاء . فينطلق اللسان . وتصغى الآذان . وتصفوا الأذهان . وتثور الأشجان .

* * *

نمّت بأسرار ليل كان يخفيها وأطلعت قلبها للناس من فيها

استفتحت أمي الحديث بحمد الله وشكره . ثم تلفتت إلى ابنتي وقالت :

« سأتلو عليك قصة رجل عظيم حاول أبوك أن يأخذ منها مقياس بطولة فشل فى تحقيقها رغم جهوده » .

« قصة مجيدة ستروينها على حفدتك . كما أرويها الآن على حفدتى . متى أتاك مثل يومى هذا . وعرض لك مثل مجلسى هـذا . وبلغت مثل عمرى هذا » .

« لا تضحكى . فقد ضحكت يوم أوصانى جد أبيك فى شيخوخته بأن أتلو يوما روايته على حفدتى . كما تلاها هو يومذاك على حفدته . وهاهى الأيام قد ولت بين غمضة عين وانتباهتها . مرور أسراب القطا . وأشتات السحب . فتحققت نبوءته » .

« بالأمس كنت أصغى لقصصه فى زهرة فتوتى . وها أناذا اليوم أعيدها على حفدتى . فى شيخوختى. وتدهور حياتى » .

« ولـكن شتان ما بين العهدين . عهدى هذا مع الحفدة والأولاد . وعهدى ذاك مع الآباء والأجداد » .

« فها أنتم تستمعون لحديثى فى ضياء قلائد الـكهرباء . تظل منيرة بأبهج بهاء . حتى أوفى حق من الإلقاء . وتوفون حقكم من الإصغاء . وقد يزعجكم ما تثيره السيارات والعجلات من دوى وضجيج . وصخيخ وعجيج . وهى تروح وتجيء حتى مطلع الفجر . حاملة ركابا من شتى الأجناس والملل والبيئات . جلهم فتية وفتيات . من الطراز الحديث . والنوع الخبيث . على حلقات الميسر والخمر يتهافتون . وعلى حلبات الرقص يتهابطون . يتسامرون فى الشجون ويتآمرون فى المجون . وقد خلع النساء خمر الصون . وطرحن حجب العفاف ـــ وجوههن سافرات . ونحورهن وظهورهن عاريات . وقد لاعبت أنا ملهن طيبات الموائد . توطئة لمجالات المفاسد . ثم ضربن

الحلبات بأرجلهن . لتخبّرن عما تستّر من زينتهن . ويعبّرن عما تحذّر من عرضهن .

« أما نحن . فكنا لا نسمع فى الطرقات – مابين آذانى المغرب والعشاء . سوى طرقات حوافر الخيل والحمير والبغال . تحمل أصحابها إلى بيوتهم . متى أتموا أعمال نهارهم . وفى الساعة العاشرة أوصدت الأبواب . وأغلقت النوافذ . وأطفئت الأنوار . وأوى الجميع إلى فراشهم : صبية وأطفال . نسوة ورجال . وغرقوا فى سبات الأبرار . وأحلام الأخيار . حتى تسفر أنوار الأسحار . فتصيح الديكة بآذان فجرها وبزوغ شمسها . مدعمة حيعلة المؤذنين . معلنة بسملة المصلين .

« وقد كنا نستنير بالزيوت والشموع . نسمع أحاديث الأوّلين . وإذا ما انتصف الليل نعست الشموع فأنعستنا . وسالت على جوانبها مدمعة فأنذرتنا . ثم تضاءلت حماتها فأيأستنا . فإما انفضضنا وأرجأنا حديثنا لغدنا . وإما تحمسنا فعالجنا الشموع سكرتها . وعاجلناها منيّتها . فركزنا فى دافئ زفراتها وداخن عبراتها وساخن رفاتها . شموعا جديدة أضأناها . فاحيت ليلتنا وأثارت همتنا . وأتاحت فرصتنا . لسماع ختام قصتنا .

« وكان جدكم الأكبر يرى فى هذا الإجراء قسوة وغدرا وفألا سيئاً . فاذا تذاءبت الشموع وتداعبت حماتها . ثم تداعت رفاتها . حتّم تأجيل الرواية لغدها . وأمرنا بألا نطمس أنفاسها بغيرها . خشية غضب أرواحها المتمازجة فى مادتها . المتذائبة فى لهبها . إذ كان يعتقد لها شخصية تكاد تكون جنيّة إن لم تكن إنسيّة .

« ولطالما طرب إذا ما أنشده ابنه شعر أبى العلاء فى صبرها وابتسامها » .

وصفراء لون التبر مثلى جليدة ... على نُوَب الأيام والعيشة الضنك
تريك ابتساما دائما وتجلدا ... وصبرا على ما نابها وهى فى الهلك
ولو نطقت يوما لقالت أظنكم ... تخالون أنى من حذار الردى أبكى
فلا تحسبوا دمعى لوجد وَجِدته
فقد تدمع الأحداق من كثرة الضحك

« وزاد طربه إذا ما أنشده وصف الأرجانى لها . وهى تكشف عن أسرار الليال . كما يكشف فى حديثه عن سير الأبطال .

نمّت بأسرار ليل كان يخفيها ... وأطلعت قلبها للناس من فيها
قلب لها لم يرُعنا وهو مكتمن ... الا ترى فيه ناراً من تراقيها
غريقة فى دموع وهى تحرقها ... أنفاسها بدوام من تلظيها
تنفست نفس المهجور إذ ذكرت ... عهد الخليط فبات الوجد يذكيها
يُخشى عليها الردى مهما ألم بها ... نسيم ريح إذا وافى يحيّيها
قد أثمرت وردة حمراء طالعة ... تجنى على الكف إن أهويت تجنيها
وردتشاك به الأيدى إذا قطفت ... وما على غصنها شوك يوَقيها
صفر غلائلها حمر عمائمها ... سود ذوائبها بيض لياليها



تمهيـــد

وشمر فقد أبدى لك الموت وجهه وليس ينال الفوز إلا المشمّر

« كان أبوكم ولوعا بالمغامرات . شغوفا بالمخاطرات . يقوم بها على متن لجج هو جاء . مجازفا بحياته فى قارب لا يتجاوز حجم الإناء . ووسع الوعاء. فعجّل خوفى عليه ضربات قلبى. وأسرع نبضات دمى. وأثار زفرات صدرى. وأسرى الشيب فى جدائلى . وكأنه أراد أن يجعل من نفسه بطلا مغوارا . أو سندبادا مختاراً . أو عوليسا جباراً . وقد ظن أن يجد فى اخوته هوميرا حديثا . يصيغ عن جولاته حديثا نفسيا . يدبّجه فى أوديسة جديدة . أو اليازة مجيدة . يتهافت عليها روّاد الأدب . جيلا بعد جيل . يمجدون بطولته . ويخلّدون أسطورته .

« أغفل أبوكم مآخذ مغامراته . ومراجع مجازفاته . إستقاها من سيرة فتى تطورت به البطوله من فتى يتيم . إلى ملك عظيم . وطن ملكه على ضفاف نيله . ووطّد سلطانه لما فيه خير مصره وسودانه . فامتدت أفنانه . واستتبت أركانه . وأصبح الوادى من منبعه إلى مصبه لأسرته وأسرتكم . موطنا رحيبا . ومستقراً خصيبا .

« أطرُق سيرة البطل الأعظم . والمغوار الأكرم . فأروى لكم الشطر القصصىّ الذى يكلل نشأته . ويتّوج كهولته . نسجه الخيال . حول نواة التاريخ . وتناقلته الأفواه .

قصة مجيدة أبيح فيها عدم التقيّد بالحقيقة المطلقة إذ الغرض من التصرف والإسهاب فيها أن نحيي فى النفوس حميتها . ونذكى وطنيتها . ونزهى فضيلتها .

والقصد منها أن نأخذ بالشبيبة المصرية الكريمة إلى المثل العليا فى الفضيلة والإقدام والوطنية والإيمان .

« شخصية فذّة . هى شخصية جندىّ كريم . نمت فى موطن القائد المقدونىّ العظيم . وتحلت وزهت . ثم عبرت البحر وعلى ضفاف النيل تجلت وانجلت » .

« إستقرّ فى أرض مصر سلطانه . ثم وفد عليه الشقيقان يوسف ويحيى . فأفسح مأواهما . وأكرم مثواهما . وألحق يحيى طبيباً بمعيّته . ثم مات « الحكيم » تاركا ولده « الإسكندر » . فشمله العزيز برعايته . وأرسله فى بعثة لإتمام علومه . ثم ألحقه بديوانه وجيشه وديوان خارجيته . وإذا ما تقاعد الإسكندر شرع فى تحرير مذكراته . وتدوين سير عزيزه على ما رآه بعينيه . وسمعه من أبيه وعمه بأذنيه » .

ثم تلفتت أمى إلى ولدىّ واستأنفت الحديث وقالت :

« توفى الاسكندر جدّكم الأكبر . ومع ما كتب وقصّ وترجم . فلم نعثر فى تراثه إلا على رسالة شعرية وطنية باللغة الفرنسية « مصر الحديثة » . أشاد فيها بمآثر الأسرة العلوية . بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال العزيز بالاسكندرية .

« وقد درج أعمامكما اثر جدكما يوسف فى مناصب القضاء . ثم درجوا إثره فى الثرى لحكم القضاء . وقريباً سوف أتبعهم . ثم يلحقنا أبوكما . وتبقيان وحدكما — وكأنى بالأسرة تذهب فى الانقباض . وتمضى إلى الانقراض . من عهد « العزيز العتيد » إلى عهد « الفاروق المجيد » (١) .

تُرى ! ما يكون شأنكما من تراثها فى حماه ! وما يكون حظّكما من ذكرها فى قراه ! هذا ما أتركه لرعايته ولمشيئة الله . . . »

---

(١) ينظر ملحق الكتاب

ثم خاطبتني مغرورقة العينين . قالت .

« أودّ أن يقرئني قلمك من سير الماضين . وقصص الغابرين . مايدخل التعزية فى قلبي الحزين .

« أودّ أن تضع سفرا يديم ذكريات أتلوها عليك . وأزفها إليك . لعلها أن تكون عبرة للمعتبرين . وتفكرة للذكرين .

«مات أخوتك . ولم يبق من ذكرياتهم غير قصاصات صحف نشر فيها نعيهم . ثم حرقها الصدأ فى أعماق خزانتي . وهاهى الصحف تلف بها السلع فى الأسواق . ثم تمزّق وتلقى فى القمام . وتحرق فى الأفران . وقد تلحق الخزائن قصاصاتها : إذ قريبا سوف أتبع إخوتك كما تبعوا أباك . وكما تبع أبوك أباه .

« ذهبوا جميعا . ولم تبق سيرهم حية إلا بين جوانحى . فهى رغم شيخوختى مازالت على صفحات قلبي مسطورة . وفى طيات نفسى مستورة . ولكن إذا مارحلت — ولا بد يوما أن أرحل . درجت ذكرياتهم . ونسيت أخبارهم .

« انتهز الفرصة قبل أن تضيع وأضيع . واشحذ بنفسك من موضعك الوضيع .

وشمر فقد أبدى لك الموت وجهه ... وليس ينال الفوز إلا المشمّر
فهذى الليالى مؤذناتك بالبلى ... تروح وأيام كذلك تبكر
تذكر وفكر فى الذى أنت صائر ... إليه غدا إن كنت ممن يفكر

* * *

«واعلم بأن مرارة العيش الذى ... يأتى الفتى فى الخوف من بغتاته
والمرء ليس يخاف من ركضاته ... إلا لوهن دبّ فى عزماته»

« تقول إنك فشلت فى المناصب والمكاسب . والجاه والمراتب . وخفقت

فى المال والذهب . والعزّ والنشب . فاسلك سبيل الأدب . يسعد به من فيه جدّ ودأب . ويتعس من عنه ارتدّ وحدب . واسمع حديث من فيه أجاد وكتب . واعمل بما أوصى وخطب .

إسمع حديثى فإنه عجب ... يُضحك من شرحه وينتحب
أنا امرؤ ليس فى خصائصه ... عيب ولا فى نجاره ريبُ
وشغلى الدرس والتبحر فى الـ ... علم طلابى وحبذا الطلب
ورأسمالى سحر الكلام الذى ... منه يصاغ القريض والخطب
أغوص فى لجّة البيان فأخـ ... تار اللآلى منها وأنتخب
وأجتنى اليانع الجنىّ من الـ ... قول وغيرى للعود يحتطب
وآخذ اللفظ فضّة فاذا ... ما صغته قيل إنه ذهب
وكنت من قبل أمترى نشبا ... بالأدب المقتنى وأحتطب
ويمتطى أخمصى لحرمته ... مراتبَ ليس فوقها رتب(١)

أرسل أنفاس فى كتابى

« ولكن يا أماه كم قرع قلمى قصور الأدب . فصدمته صخور الريب . وصدته عن مسماه . وردّته عن مرماه . فركد كليلا مقهوراً . ورقد ذليلا مقبوراً . وكان كلما سلك طريقا عثر فى صخرته . وكانت العثرة قاسية مؤيسة . وما زال القلم هائبا . والأمل خائبا . وقد كاد يحبطنى اليأس . ويثبطنى القنوط . لولا أن أتيتنى بعبر الأجداد . وسير الأمجاد . وشرعت فى قصة فريدة ستتمين باذن الله حديثها . وقد استحثثتينى على الأقلام قبل أن تقصف . وعلى الأفهام قبل أن تتلف . وأعدتينى على الارادة قبل أن تضعف . وعلى الذاكرة قبل أن تعصف . وأرجعتينى إلى الذكريات فى فيضها قبل غيضها .

(١) من مقامات بديع الزمان الهمذانى — المقامة الاسكندرية .

وإلى الصور فى تجلـّيها قبل تولـّيها . وإلى الفرص فى سنوحها قبل جنوحها .
وقلت لى « خذ القلم فى يمناك والقرطاس فى يسراك . واكتب يكلـّل الله بالنجاح مسعاك » .

أما وقد تقدمت فى الأعمار . وترصدت لى الأقدار . فانى أطلب إلى الله تعالى أن يمدّ لى أياماً تسع كتابى . وتعب آمالى . وأخاطب الموت مستعطفاً امهالى .

« أيها الموت أمهل الكاتب المسكيـ ـن يرسل أنفاسه فى كتابه
أنا قلبي من الشباب وجسمى أثخن الشيب رأسه بحرابه »
يحبون الوطن للفداء لا لحسن الجزاء :

أسبر أعماق الذكريات . وأستعرض ماضى الحياة . وأقارنه بما يحيطنى من مجال . ويكتنفنى من مآل . وأطلق لضميرى حرّية فحص نفسى . بلا تضليل أو مواربة . فأرى الخيبة فى الحياة نصيبي .

كنت فى صباى غافلا أو متغافلا . متنعما مطمئناً . لا أحمل همّاً . ولا أحفظ ضغنا . أتمتع بسعة العيش ودعته . وقد حسبت هـذه الصورة من الحياة دائمة ثابتة . وما ظننت أن الزمن يأتيها يوما بمخالبه فيمزّقها . ويمزق فيها الأمانى والآمال .

مات أبى . وما زال كهلا . وما زلنا عيالا . فلم أكد أتحمل فجيعة موته لولا إيمانى . تحملتها . وما زلت أتحمل من عواقب فقده وشيكاما هدم أملى . ومرّر عيشى . وكأن الأقدار لم تكتف بما أتتنى من فاقة وعلة . وفشل وذلة . وقد ضفف العيش بعد أن ضفا . وكدر بعد أن صفا . فأردف خمسة منا ثم السادس بالأب . ثم شتت شمل من بقى .

وإنى بعد أربعين سـنة . ما زلت أذكر مهد طفولتى فى جدران قلعة

المقسيّ . وقد قيست قسوة القلوب بقسوة حجارتها . وقورن جبروت جالوت بجبروت عمارتها.

وقف جالوت مختالا أمام داود الراعي الصغير الهزيل القصير الذليل . فهزم داود جالوت وأرغمه. وأذله وصرعه ـ أما ربع المقسيّ العتيّ . فتقوّى وتجبّر . وشمخ وتكبر . وقد وطىء بأسسه مهدنا . وخسف به أرضنا .

وإني وأيم الحق لا أعرف ما هي قاعة المقسي . ولا من هو المقسي . لم يكن أبي . ولا من عشيرتي . ولا من أهل حيي . ولا أعلم من أي عصر أتانا . ولا من أي مصر وافانا . ليدك مهدنا — مهد الطفولة والأمل . وليزيل عهدنا — عهد البنوّة المرحة والأبوّة الحانية .

أمرّ كل يوم على ربع المقسي . فيثير مرآه ذكرى الدار الدراسة تحت جدرانه .

« صمّ صـــداها وعفا رسمها واستعجمت عن منطق السائل »

وأعيد استبكاء امرىء القيس لرفيقيه . فأبكي . ولا أجد من أستبكي :

« قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت آياته منذ أزمان
أتت عليه حجج بعدي عليها فأصبحت لخطّ زبور في مصاحف رهبان
ذكرت بها الحيّ الجميع فهيجت عقابيل سقم من ضمير وأشجان »

أثير في الذكر مهد صباي . فأرى شرفته الهيفاء . تطلّ على حديقتها الغنّاء . وقد حملتها عمدها . وتوّجتها طنفها . وزينتها قدورها . وطوقتها قضبها . وقد عرّشت عليها الأشجار . وازدهرت زهورها . وزهى في ظلمات الليل نورها .

ثم بيعت الشرفة والدار أنقاضاً . إذ كان قدرهما انقراضاً . فصهرت الحدائد . وقطعت الأوتاد . وأهدمت الأطناف . وأحرقت الأعواد .

زالت الشرفة كما زالت دارها . ولكنى ما زلت أرى فى الخيال صورتها .
وما زلت أسمع فى الهواء أصوات الوطنية تصاعد من أركانها . فيهزّ أوتار
أعصابى صداها .

عيد سعيد ـــ لن أنساه ـ ما حييت وما نسيت ـــ شاركها فيه الأمة
أميرُها . فوجب على أبى أن يقرن القول بالفعل . ويدعم الشعور بالعمل .
ويجلى مظاهر الوطنية والولاء . فى دُجنه الليل إجلاءه لها فى وضحة النهار .
أزف الموعد . واقترب الموكب . فاصطفّ البعض فى الشرفة . والتفّ
البعض حول قوس النصر . كل منا يمسك قبسه . ثم هلّ الأمير . تحفّ به
كوكبة الفرسان . فأضيئت الأنوار . وأشعلت النيران . وهبّ من جوانب
القوس المزدان والشرفة والبستان . هتافات وأضواء . وتردّدت فى الأجواء
نداءات الوطنية والوفاء . وتحيات الإخلاص والولاء .

وفى صبيحة تلك الليلة المنقوشة فى قلبى بالنور والنار . وقفت بباب
الدار عربة جاء راكبها ليعبر عن امتنان الأمير لولاء جدير بحسن الثناء
وخير الجزاء . فقال أبى ما قاله جدى من قبل « كفانى من العزاء وطنيتى
فى سبيل الوفاء لا فى سبيل الجزاء . . . كفانى من العزاء أن أبثها فى نفوس
الأبناء ـــ يحبون الوطن للفداء . لا لحسن الثناء ولا لخير الجزاء » .

الوطنية إيمان :

والحقيقة ـــ أى أبنائى الأعزاء ـــ أن الوطنية إيمان . أكثر منها ميراث
إنسان . فقد أتى مصر ـــ أرض الشعوب والأنبياء . وملاذ الملل والأولياء ـــ
رجال أمجاد . وفراعنة وبطالمة شداد . ما أظن أجسادهم من صلصال البلاد .
لحكموا أهلها . وما أخالهم من تربها . وقد استشعروا جميعاً مصريتهم . فأحبوا
مصر . وماتوا فى سبيل حبها . ثم درجوا فى بطون أرضها .

ثم جاءها ابن طولون وكافور والاخشيدى . والمعز الفاطمى وجوهر الصقلى . ثم صالح بن أيوب الكردى فبسطوا ملكها شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً . وقد آمنوا جميعاً بمصريتهم . وحاربوا أعداء مصر فكانوا لها فخرا . وكانوا لأبنائها ذخراً .

ثم وطىء محمد على أرضها . فاسترشف قطراتها . واستنشق نسماتها . واستشف بسماتها . وأكل أبها وبقلها وحبها . فشغف بها وأحبها . وأحب أبناءها .

آمن بمصر . وسعى فى إعلاء شأنها . وقد جرد سيفها فى وجه سلطانه سلطانها . طالبا حريتها حرية أبنائها . على أنه ابنها . فأصبح حقا ابنها . رفع سمها . وألف جيشها من أبنائها . وأنشأ رجالها من رجاله . وأنشأ رجاله من رجالها . وبحكمة طيبة أشفى قرحها . وأدمل جرحها . وعلى أسس متينة ودعائم رصينة شيد صرحها . .

ولقد دب لها الهوى فى فؤادى :

ساهم آبائى فى خدمة مصر . وبذلوا المهج فى سبيل دعتها . وأجهدوا النفس فى مقاصد عزتها . وقد تخالجت نسماتها فى صدورهم . فاستراحت أنفاسهم إلى صفائها . وتوالجت أنوارها فى مقلهم . فاهتدت أبصارهم بضيائها . وجرى النيل فى متناول شفاههم . وشربوا روى مائه فشفاهم . وقد استحال الماء دما يجرى فى عروقهم . وينبض فى قلوبهم ويتغلغل فى كل ذرة من أجسادهم .

نهر مبارك :

«سقى وادياً بين العريش وبرقة   من الغيث هطال الشآبيب هتان»

«نهـــر

تبارك ماؤه فتكاد أن   تمحى بطهر مياهه الآثام»

ويكاد لو رشف العليل زلاله   يشفى العليل وتذهب الأسقام
تحيا البلاد بمائه فكأنه الـ   روح التى تحيا بها الأجسام
وإن شابه كدر ففى أكداره   صفو وفى فيضانه إنعام (١) ،

ولأذكر شوقياً فى منفاه يستجدى حافظاً قطرة من مناهل نيله :

يا ساكنى مصر إنا لا نزال على   عهد الوفاء ـ وإن غبنا ـ مقيمينا
فلا بعثتم لنا من ماء نهركم   شيئا نبلّ به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنة   ما أبعد النيل عن أمانينا

فيجيبه حافظ :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله   صاد ويسقى ربا مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده   ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه   وقد نأينا وإن كنا مقيمينا

تناجت ضمائر أجدادى فى الولاء لمصر ولولاتها . وتفانت قلوبهم حبّا لها ولأبنائها . وسعت أقدامهم فى خيرها ولخيرها . على خصيب أرضها . وبثت أيديهم من نفوسهم مادة حيّة فى بروجها . ونفثت أفواههم من أنفاسهم روحا زكية فى سراجها . . .

وقد تسللت دماؤهم التى تغذت بمائها وبنبتها وهوائها ، من جد لأب . ومن أب لإبن . حتى بلغت جسدى . فدّبت فى دمى . وضربت فى قلبى . ثم أطلقتنى أحشاء أمى على أديم أرضها ، فاستنشقت هواءها ، واستكشفت ضياءها ، واسترشفت فى ألبان أمى ماءها ورحيق نبتها وثمرها ، فشبّ فى نفسى حبها ، ودبّ فى فؤادى هواها . .

ولقد دبّ الهوى لها فى فؤادى   دبيب دم الحياة من الورق

---

(١) نجيب الحداد .

أسرة طيبة

أب تقيّ وولد زكيّ

كان إبراهيم بن علي - رئيس حراس قولة - من أسرة كريمة طيبة . ومع تمسكه بأهداب دينه فقد كان لا يفرق في المعاملة والمصادقة بين مسلم ونصراني. فأحبه مواطنوه على اختلاف مللهم . وكان مع اخلاصه لاسلامه . يجد لذة ومتعة في التحدث معهم . ليتعرّف ما تمليه عليهم أديانهم وشرائعهم ومذاهبهم من مبادىء خلقية ، وصفات نفسية ، وليتحقق من مدى تتبعهم لها ، وتطبعهم بها

كان إبراهيم ورعا تقياً ، ومع استقامته واستعفافه وتقاه ، فقد كان يخشى الزواج وعواقب مسئولياته : إلى أن أقنعه صديق وفيّ بوجوب التأهّل كي يهنأ أسوة به في عيشة زوجية رغيدة ، وما فتىء يبدى له الحجج الشرعية والبراهين الاجتماعية والأسانيد الأخلاقية والصحية . إلى أن رضخ للنصيحة عن طيب خاطر ورضاء نفس .

كان إبراهيم سعيدا . وقد جعل الله له من زوجه زينب وولده محمد قرّة عين . ولكن السعادة لم تدم كثيرا . لأن ابراهيم لم يعش طويلا . إذ فاجأته منيته كهلا . وما زال ولده فتيّا . فحزن عليه أهل بلده . وبكاه صديقه وقد استقدم لما كان يمنّيه به من أمان واطمئنان . واستبكت لما كان يرجيه له من جميل آمال ، ولكنه وجد تكفيرا في التعاون مع الأصدقاء . والتضامن مع الأوفياء . على العناية بالفتى محمد . والأخذ بيده إلى قويم سبيله

دار الحديث يوما حول شئون محمد ، ولم يترك له أبوه إلا مالا يسيرا ،

لايضمن سعة العيش ، ولا يدرأ غائلات الدهر ، وتباحث المجتمعون فى تأمين مستقبله. فتعهّد إسماعيل الحاكم بالتوجيه المادىّ، وأخذ ليون التاجر الفرنسىّ على عاتقه التوجيه العملىّ، وساهم الصديق فى الدأب على التوجيه الثقافى. فاكتسب الفتى فى بضع سنين خبرة عملية فى الشئون الاجتماعية والتجارية والمالية والاقتصادية : تدعمها قوة جسمانية ومناعة صحية وشجاعة أدبية ، نالها من تدربه على أعمال الفروسية والرياضة البدنية ، كركوب الخيل وحمل السلاح والعدو والقفز والسباحة وقيادة السفن ، مع حسن المعاشرة فى عقر بيت طيب وأسرة طيبة ، وقد كانت الطبيعة الجميلة ، والبيئة النبيلة ، والآيات الجليلة ، الأثافىّ الثلاث التى نضجت عليها شخصية الفتى وبطولته وعبقريّته .

الطالع السعيد

انتهى التباحث والتشاور ، فقام الصديق ، وأعلن بصراحته المعهودة وصوته الجهورىّ « إنى أتنبأ لهذا الفتى الوديع الهادئ الحزين حظا وفيرا ، وشأنا خطيراً ، قد يدرجان به إلى مصاف الأمراء ، ومراتب الصلحاء »

فقاطعه الحاكم : «أنت تهذى ، أيها الصديق ، وأذن السلطان قريبة منك قد تسمعك »

فاجابه الصديق متحمسا : « عفوا أيها الحاكم العزيز ، فمع الفارق فى النبوّة والرسالة اللتين أقدسهما ، ومع الفارق فى الحكم والسلطان اللذين أجلهما ، فانى أتوسم فى محيا هذا الفتى دلائل عظمته وجاهه ، وأتتبع فى كفه واتكشف فى قدحه معالم عزته ونبوغه ، وأقرأ له فى أوراقه حظا سعيدا وعمراً مديداً ، وسيصبح باذن الله رجلا عظيما ، وبطلا صنديدا ، تخضع له رؤوس ، وترضخ له نفوس ، وتطاف حوله كؤوس — كؤوس يتجرعها

البعض سمأ دهاقا ، ويرتشفها البعض ترياقا وفاقا ، وهاهو ذا يتدرج فى سبيل رشده ، وبلوغ أشدّه ، فى الخلق عظيما عليا ، وفى الشيم كريما أبيا ، وستظهر لكم الأيام طالعه زاهيا جليا .

«إنى والله مامسست السلطان جل قدره فيما تنبأت ، رأيت للفتى محمد بن علىّ نجما فى زرقة السماء ، بزغ فى الشمال ، وحام فى الآفاق شمالا وجنوبا شروقا وغروبا ، ثم يمم إلى الجوزاء ، وتركز فى الأجواء

«إنطلق ميداس من أرض مقدونية إلى بعض الأصقاع ، فأنشأ ملكا . وأحال المياه ذهبا » .

«وانطلق الاسكندر الأكبر من أرض مقدونية إلى تترى الأصقاع . لينشيء فى دولته دولا ،

«فالى أى أصقاع الأرض سينطلق فتانا محمد إثر نجمه . يستقل على اليمّ فلكا . إلى حيث يستقل ملكا » ؟

علت فى الجماعة ضجة ، وفشت فيها عجة ، فلم يسع الصديق إلا أن يتستر فى جنح الليل متسربا هاربا .



مغامرات الصبا

ما بين السور والصور :

كان ما شاهد محمد فى صباه من حوادث وصور ، وما سمع من قصص وسور، وازعا طبيعياً حبب إليه خوض الغمار حبه لخوض القفار. وقد قدّر أعاصير البحار كمحن الحياة حدثا طبيعياً تتوقف خطورته وعواقب أخطاره ، على الحالة النفسية ، والجبلة الخليقة ، والحيلة الفكرية ، والوسيلة العقلية .

* * *

عشق محمد جولات البحار ، ولم يبلغ بعد فتوّة الأعمار ، وقد كان ولوعا بزورقه يهيم به فى هدوء اليمّ وصفائه ، وفى ثورات أمواجه وعاصفاته ، وكان الزورق رفيقه الوفىّ ، وصديقه الهدىّ ، مؤنسه فى وجيعته ، وأنيسه فى فجيعته ، وفسحة حياته فى وحدته ، وتعزية نفسه فى خلوته ، يخوض به اللجج : صافية كانت أم عكرة ، باسمة أم كدرة ، زرقاء أم سوداء ، مستقرّة أم هوجاء ، أمينة أم غدّارة ، مطمئنة أم غرّارة .

* * *

ولطالما أنجى السفن وما حوت من رجال ، وطوت من متاع ومال ، وهى تتخبط فى طيات الأمواج بركابها ، ترفعهم على أثباجها ، وتدهورهم إلى أعماقها ، وقد فلّ المجهود عضله ، وفتّ عضده ، وكانت لفحات الرياح قد مزّقت ملابسه ، وقرّحت ملامسه ، وكانت حبال القلوع والصوارى ومقابض المجاديف والدفات قد قيحت كفيه ، وأيبست يديه ، وشلت رجليه .
وطالما أنقذ الشباك وما حملت من أسماك هى كل رزق أصحابها ، وجلّ

غذاء أربابها . ثم ردّها إليهم بأسماكها ، بعد أن هدم التعب همّه ، وهزم النصب قوّته .

* * *

ثم بلغ محمد أشدّه ، فخاض معارك الحياة ، ثابت الجنان ، رابط العنان ، موقنا أنه إن نجح فى دنياه فقد يكون فى أخراه فاشلا ، وإن فشل فى دنياه فقد يكون فى أخراه فائزاً ، موقناً أنه كما ولد فلا بد يوما أن يموت ، وأنه إن لم يمت غرقا ، فبغير الغرق سوف يموت .

وما دام العيش مفروضا ، وما دام المـوت موعوداً ، فلم يكون الفرق وزرقرق العرق ، من الغرق ، ومن غير الغرق . ؟

« والمرء أيام تعدّ وقد رعت حبال المنايا للفتى كلّ مرصد »

وكأنى بالفتى محمد قد اعتبر بحكمة سيدنا على فى الدنيا « تميد بأهلها ميدان السفينة ، تقصفها العواصف فى لجج البحار ، فمنهم الغرق الوبق ، ومنهم الناجى على بطون الأمواج ، تحفزه الرياح بأذيالها ، وتحمله على أصولها ، فمن غرق فيها فليس بمستدرك ، ومن نجا منها فإلى مهلك » .

وماذا سمع محمد من سور . فاستساغها واعتبر .

سمع « : واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ، حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ، وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم . وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب

معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين. وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ، ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق أنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال : رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين قيل : يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » (١١ — ٣٨) .

وسمع : « وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون ، فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ، فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين » (٣٧ — ١٣٩) .

وسمع : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرت عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت

هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون . ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين » (٢٢ — ٧) .

وسمع : « ولقد مننا عليك مرة أخرى ، إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ، أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليمّ فليلقه اليمّ بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ، إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقرّ عينها ولا تحزن . وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدَرَ يا موسى » (٢٠ — ٣٧) .

وسمع : « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبساً لا تخاف دركا ولا تخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ما غشيهم . وأضلّ فرعون قومه وما هدى ، يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المنّ والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحلّ عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ، وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى (٢٠ — ٧٧) .

وسمع : « وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون . فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون . فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بنى إسرائيل . فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معى ربى سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثمّ

الآخرين : وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم (٢٦-٥٢).

وسمع : « ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور (٣١ — ٣٢) .

وسمع : « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير (٤٢ — ٣٢) .

وسمع : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح دسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ، ولقد تركناها آية فهل من مدكر » (٥٤ — ١٥) « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون .

وسمع : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون (١٠ — ٢٣)

وسمع : « ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه

كان بكم رحيما ، وإذا مسكم الضر فى البحر ضلّ من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البرّ أعرضتم وكان الانسان كفورا ، أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البرّ أو يرسل عليكم حاصبا ثم لاتجدوا لكم وكيلا ، أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا . (١٧ — ٦٦)



مواعظ الطبيعة

ثورة خطيرة فى حظيرة صغيرة :

كان لزاما على الفتى محمد وعلى رفاقه أن يقودوا البط والأوز بعد ظهر كل يوم إلى القناة أسرابا ، وأعواد القصب فى أيديهم ، يسوقونها فى الطريق. ثم يدفعونها إلى الماء الهادىء الصافى .

تسبح الطير وتغطس وتلعب وترفرف بأجنحتها وتهز برؤوسها ، فتنعشها المياه وتنشطها ، وتزيل عن ريشها أوساخه وذبوله ، فيبدو بهيجاً وهاجا .

وقد يشرد بعضها فى الماء ، فهناك من الصبية صراخ ومن الكلب نباح . وهناك للفتى محمد فرصة طيبة يظهر فيها بطولته . فيقفز فى القارب يلاحق البط والأوز . فيشق الكلب الجوّ نابحا ، ويشق الماء سابحا ، وهو يتبع سيده الصغير . ثم يعود إلى البر فى إثره .

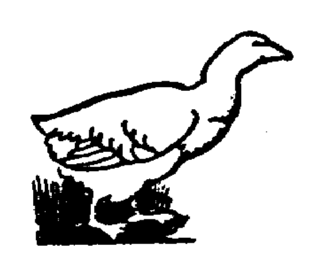
تخرج الأطيار سالمة كاملة . وتتجمع أسرابا ، تجمع الجنود فى صفوفها. وتعودو الدليل يرشدها ، والكلب يحرسها — إلى مأواها . حيث الماء وفير. والغذاء كثير . تتمتع بالعيش القرير ، فى حوشها الوثير .إلى أن يأتيها الأمر الخطير ، واليوم المرير ، والشر المستطير .فلا صراخ يجديها ولا صراع ينجيها ، يدب الطباخ يده العظيمة خبط عشواء فى زمرتها المتطايرة ، وماوقع منها فى قبضته . فلا مفر لها من إرادته . إذ لابد للسكين أن يجز نحرها ، ويهدر دمها ، ويحز رأسها ، إطعاما لجوعة ، وإشباعا لشرهة . فتجلت فى ذلك للفتى محمد عبرة شاعر الأولين :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهـــرم

* * *

عادت الأسراب ومحمد يقودها ، والكلب يحوطها ، فأهل بها ما كان قد تخلف منهـــا فى الحظيرة كأنه يمنحها قراها . فصرخ الأوز وتمايل . ومد أعناقه وتخايل . وتبختر البط وفتح فاه وصـــات ومرح . وأرجح الكلب ذنبه ورفع أنفه ونبح . وهزت الديكة أعرافها وعدت . وصفق الدجاج بجناحيه وولول . وخافت فراخه فولت . ورفرفت الحمائم من سور إلى سور وفزعت . وجرت الأرانب من جرة إلى جرة وجزعت . ورمت أذنيها إلى الوراء وذعرت . وعلت الجلبة ، واختلطت الحلبة وعمّ الهرج . وساد المرج . وانكسر إناء . وانقلبت دلاء . فبعثر الغذاء . وسال الماء . . ووقفت الشاة . مضطربة متحيرة . مرتبكة متطيرة . مأمأت . ثم سكتت . ووجمت ، وتجهمت — تعجب لم تبدلت أحوالها . وتفاقمت أهوالها . ولم تمرّج بحالها . وتحرّج مآلها .

وأزاء هـذا الهرج والفزع والمرج والجزع . لم يجد محمد بدّا من تهدئة الأحوال . وتأمين الأهوال . فانسحب متقهقراً . وقد أخفى عصاه فى ثوبه . وتبعه الكلب فى إثره . وقد أهبط كفله . وأحنى ذنبه بين رجليه . وأخفض أنفه . وأدلى أذنيه على صدغيه . فتجلت فى ذلك للفتى محمد حكمة الغابرين : « تلافى الضر إذا حمّ . وتجافى الشرّ إذا عم » .



ما بين السراطين :

كان الفتى محمد فى أيام الصيف الصافية يذهب مع بعض الصبية إلى جزيرة من جزائر المدّ والجزر حيث تكثر السراطين . يتصيدونها فى قيظ الضحى . وأقدامهم عارية تلسعها الرمال المحرقة . ورؤوسهم حاسرة يلفحها من الشمس وهج يتحدى نسمات البحر المنعشه .

تتبّع الصبية السرطان حتى بلغ جحره وتحصّن فيه . فأتوه ماء عذبا صبّوه عليه فاختنق . إختنق لأنه يعاف العذب ويلوف المرّ . فخرج متهيجاً رافعاً عينيه . مادّا كلبتيه . فصرخوا وحاروا فى أمره . لا يعرفون وجهة سيره . ولا يهتدون إلى سبيل تقهقره . فإذا أفسحوا له طريقا وجدوه انحرف فجأة قاصدا أقدامهم . وفى أصابعها الرخصة مأخذ شيق لكلبتيه الخانقتين . فولولوا وتشتتوا . خوفا من عضته . واشمئزازا من لمسته . وهو مازال يسعى للخلاص وهم يتبعونه . وقد أزعجوا خاطره . وخرّبوا صرحه . حتى أجهده العدو . واستقرّ والصبية يواجهونه . فجعل محمد منهم شغلا لعينى السرطان البراقتين . وتسلل خلفه برشاقة وأسقط على ظهره عصاه بترفق . فهبط السرطان إلى الأرض وانكمش فى الرمال . وسبى عينيه . وأرخى كلبتيه . فمدّ له محمد يده الأخرى ومسك ظهره المتحجر بتمهل وحذر بين سبابته وإبهامه . ثم رفعه . فدهش السرطان من تعلقه فى الجو . حيث لا يبس يجرى عليه . ولا بحر يسعى إليه . وقد لاعب أرجله الثمان كأنه وجد فرصة يبغى بها العدو فى السماء إلى مداره . ليرتكز قرب حوته . ولكن سرعان ما وجد نفسه — وعلى غرة من سهوه — ساقطاً من سمائه إلى أعماق وعائه . وها هو سرطاننا المسكين مسجون بين الجدران الضيقة الملساء . إذا تسلق انزلق . وإذا سكن اختنق . وما فتىء ينزلق ويتسلق . ويتسلق وينزلق . ويحك بمخالبه جدران الوعاء . حتى كلّ ويئس . وغلبه الإعياء . فجمد فى القرار . ينتظر تصاريف الأقدار .

انتظر السرطان وليد . ورقد على مابه من كد . وإذا بزميل له يسقط عليه من السماء . يشاركه الضراء . فى قاع الإناء . كما شاركه السراء . فى متسع الخلاء وفسيح الماء . ولقد يجد فى صحبته الظلماء . بعض الفرج والعزاء . ولكن ما أن بلغ السرطان الجديد القاع . حتى اشتدّ الحك والصراع . فقد جعل السرطانان يتسابقان التسلق الواحد على ظهر أخيه . كل منهما يبغى التخلص من شرّ ما هو فيه . ثم ييأسان . فيلبد الجديد فى أحضان القديم . يتناجيان سوء الحال . ويقدران خطر المآل . ثم يسقط عليهما سرطان ثالث فرابع فخامس . فتزدحم الحلبة . وتحتدم الجلبة . فتكون قعقعة فى الأركان . وقرقعة فى الجدران .

ثم تهدأ الثورة . وتسكن السورة . وإذا بالسراطين منكمشات . بعضهن فى بعضهن متعلقات . وقد أعياهن التلبط . وأجهدهن التخبط . فركدن ورقدن يفكرن فيما عساه أن يكون مصيرهنّ ، الخلاص إلى أعماق البحار . أم الهلاك على جمرة النار .

كان الفتى محمد يلهو فى العدو وراء السراطين مع رفاقه . يلحقون بها ويجمعونها . وإذا ما أخذوا من اللعب كفايتهم . وآن موعد عودتهم إلى بيوتهم لتناول غذائهم . هرولوا إلى البحر وأرقدوا الوعاء على أحد جوانبه يطلقون للسراطين سراحها .

ولكن هيهات للسراطين أن تستشعر خلاصها . وقد تكدست أجسادها . فتخدرت حساسيتها . وتعشقت أرجلها فانعدمت حركتها . وإذا بموجة ضخمة تسعفها رذاذا من قطراتها . فيدبّ النشاط بها ، وتخرج مهرولة إلى مساعيها . تلاحق الموجة فى أذيالها . فيتشتت شملها ـ حرة ناجية إلى طيات لججها . وقد أشعرت محمداً وهى خارجة من سجنها كأنه هو المحجوب فى

غياهبه . وقد أطلق سراحه بعد طول تباريحه . ليتمتع بحرية العيش فى فسيح تساريحه . فحمد الله أنه لم يكن من هاتيك السراطين ، ولا من أشباهها ـ من بنى البشر المشبوهين ـ مجرمين كانوا أم بريئين

كان لهذا القنص البرىء أثر أجلّ من الرياضة فى نفس محمد ، وفى نشأة جبلته وتكوين خلقه ، فقد علمه التحايل على مواجهة الغريم ، والتمكن بالتربّص والحيلة والحذر والدهاء

* * *

قدّر محمد فى السرطان رمزا قويماً أعلى به الصدق والفضيلة على الكذب والنفاق والرذيلة ، وأعلى الصراحة والإخلاص والوفاء على التغرير والخديعة والرياء ، وأعلى الكرامة والشجاعة والاستهانة على الاستسلام والجبن والاستكانة . . .

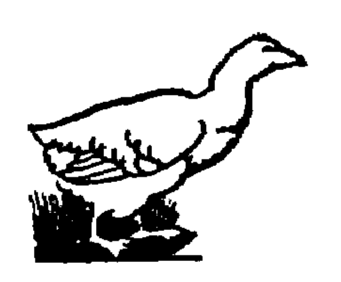
، كذب العلجوم لغاية فى نفسه ، وغرّر بالسمكات صاحبات السرطان ورفيقاته فى المرعى والعيش . وهدّدهن فى غديرهن الأمين بشباك الصيادين ، ولا شباك هناك ولا صيادين ، وضمن لهن النقل من غديرهن الخطر إلى غدير أمين ، مياهه عظيمة وأقصابه وفيرة ، ولا غدير هناك ولا حباب ، ولا أقصاب ولا أعشاب

وفى العلجوم بوعده ، فحمل فى كل يوم سمكتين ، تستسلمان له آمنتين مطمئنتين ، وقد ودّعتهما شقيقاتهما ، آملات مستبشرات ، وإذا ما انتهى بهما إلى ربوة لاقصب فيها ولا ماء . أكلهما ـ آمنا مطمئنا ، آملا فى السمكات المقبلات كفاف أيامه ـ يوما بعد يوم ، آنسا فى وهج قمورها حياة ملؤها الشبع والرخاء ـ بعد الجوع وطول العناء

ولكن سرعان ما استوحى السرطان سوء مصير السمكات خليلاته. فقصد العلجومَ يوماً وأسرّ إليه أنه في مكانه أشفق واستوحش. وأنه يرغب في اللحاق في برفيقاته السمكات السابقات. وتمهيد الخير لرفيقاته اللاحقات. يشاركهنّ النعيم العميم والعز المقيم. في الغدير الجديد العظيم. بفضل العجلوم الوفيّ الحميم.

حمل العلجوم السرطان. وأتى به إلى التلّ الخرب. فلمح السرطان عظام الأسماك مجموعة ومنثورة. وحزن وابتأس. ولكنه لم يرتعد ولم ييأس. وقد كان سريع الخاطر - زكياً. قويّ الإرادة - جريئاً. علم في طرفة عين أنه من الحق له أن يقاتل حفظاً لنفسه وكرما لرفيقاته. قبل فوات الفرصة. وعلى غرّة من عدوّهن عدوّه. فهوى على عنق العلجوم بكلبتيه. وعصره فأماته. ثم تخلف إلى السمكات الناجيات في غديرهنّ. مترنحا بين عاملي الحزن والفرح: الحزن على من هلك. والفرح لمن سلك.

وهكذا خرج فتانا محمد من كل لهوة بعبرة ومن كل فسحة بموعظة. هذبت شعوره. وقوّمت رجولته. أفعمت شجاعته. وأدعمت بطولته. وثبتت إيمانه.



بين الفجر والشروق

استيقظ محمد وسيف الفجر يقرع ترس الليل . فشتت الدياجير إلا عثيراً من الظلمة ما زال فى الهواء عاثراً . وبدد الكواكب إلا نجما واحداً مازال فى السماء غائراً .

غافل محمد أهل البيت وهرول إلى الزورق يضرب بمقذافيه المياه الهادئة . فيشق الزورق زرقتها الصافية . ولم يعكر صفوها سوى دلفين مبكر ينافس محمداً السير . خشية أن ينافسه محمد الخير . يثب الدلفين من الماء إلى الهواء . ثم يدبّ من الهواء إلى الماء . قاتم الظهر ناصع البطن . وهو يتصيد أقواته – يثب وراء الأسماك هاجما . والأسماك تثب أمامه هاربة . وكأنها سبائك من ذهب وفضة . تنتثر فى صفاء الهواء . ثم تساقط فى صفاء الماء .

ترك محمد مجدا فيه . وأراح راحتيه . يشاهد الكفاح فى سبيل الحياة والرزق والنجاة . ولم يدر بخلده بعد أن كفاح الحيوان والإنسان . شرّ من كفاح الأسماك والحيتان والنينان .

ثم ألقى نظرة عابرة إلى الوراء . فرأى المدينة ساكنة داكنة . وقد سجتها من الليل غفلة شقتها ضياء الفجر وهى تفعم المياه الراكدة فى أحضان مينائها . وتراصت السفن كبيرها وصغيرها تتخللها زوارقها وقواربها . مسجحة ألوانها ما بين زبرجدية الماء والسماء . شاهرة صواريها . لا تحركها نسمة . ولا تهزّها نبرة .

والفجر يرقب من دجاه غرةً متضائل من سحقه يتطلع
متنفسا فيه جنانا واهنا فى كل لحظة ساعة يتشجع
حتى انزوى الليل البهيم لضوئه وقد استجاب ظلامه يتقشع

وبدت كواكبه حيارى فيه لا تدرى بوشل ربالها ما تصنع
متهادلات النور فى آفاقـــها مستعبرات فى الدجى تسترجع
وكواكب الجوزاء تبسط باعها لتعانق الظلماء وهى تودّع

انشقّ الفجر تبرا انتثر فى الأرجاء . وتساقط على أديم الماء . وإذا بقبة عظيمة حمراء . تشرف شرقا مابين الأرض والسماء . على أفق زرقته معصفرة باهتة مغبّرة .

« والشمس من مشرقها قد بدت مشرقة ليس لها حاجب
كأنهـــا بوتقة أحميت يجول فيها ذهب ذائب »

وما زالت تعلو وتصغر . وتصغر وتعلو . ويصفرّ احمرارها . ثم يبيضّ اصفرارها . حتى بدت ترسا من لجين مازجه عسجد . أو قرص من نور . أضيء فى مصباح من بللور .

إذا انشقّ عنها ساطع الفجر وانجلى
وقد دجا الليل وانجاب الحجاب المستّر
وألبس عرض الأرض لونا كأنه
على الأفق الشرقىّ ثوب معصفر
تجلت فيهـا حين يبدو شعاعها
ولم يجل للعين البصـــيرة منظر
عليها كدرع الزعفران يشبه
شعاع تلألأ فهو أبيض أصفر
وجللت الآفاق ضـــوءاً بنورها
نخرّ لها وجه الضحى يتسعر »

وإذا شوهد أديم الماء

« يظن به ذوب اللجين فإن بدت
له الشمس أجرت فوقه ذوب عسجد »

بين الماء والسماء :

وقف محمد يمتع النظر بجمال البحر وجلاله . تمتدّ زرقته إلى أقاصي الآفاق. حيث تقترن بزرقة السماء . وحيث تمتزج أنوار السحر الفضية بأشعة الشمس الذهبية . وقد وشى الشفق نسيجه بألوانه الزاهية . وكان الهواء هادئا هدوء الماء . تنفس محمد وكأنه يستنشق زرقتهما فى حيويتهما ويسترشف حيويتهما فى زرقتهما . فسبحان من نفخ فيهما من روحه . وسبحان من منّ عليهما بتلك الصبغة الجميلة . يرنح لها البصر وترتاح إليها النفس

قولوا ما قلتم إن هذه إلا زرقة تكاثف الهواء وتعاكس الأجواء فى أعماق الماء. ولكن هذه الزرقة الجميلة ـ سواء أكانت زرقة تكاثف أم زرقة تعاكس ـ من وضعها فى ذاتها . ومن صبغها فى مادتها. ومن حكم عليها بالتغير والتقلب ـ من زرقة صافية إلى زرقة باهتة ، ومن زرقة باهتة إلى زرقة كدرة وخضرة عكره ، وهذه المؤثرات الطبيعية ـ كما تسمونها ـ من زوابع ورياح وأجواء وظلمات وأنوار وأنواء ـ من حكم عليها بالتبدل والتقلب والتغيرّ ؟ من حكم عليها بالتحرّك تحركا حكيما له مسبباته ونتائجه ومبرراته ؟

رمى محمد إلى زرقة البحر نظرة بلغت الأفق وأصعدها الى زرقة السماء. وكأن لا أفق يفصلها عن زرقة الماء ـ ثم أجالها ـ واذا بالفضاء عميق. واذا بالهواء فتيق وقد أصابه ذهول فى أغوار تلك الهوات الاثيرية السحيقة . وكله روح يهيم فى سعتها وأبديتها. سبرتها عيناه حتى كلتا. وارتدتا الى البحر مقهورتين واغرورقتا

تأمل أعماق البحر فاذا بصغار الأسماك تحوم تحته خلال الأعشاب

وتجول فى ثنايا الرمال وحنايا الصخور ـ آمنة مطمئنة تبعث من أجسادها الحية بريقهاالفضىّ فى الماء الزبرجدىّ. ساعية فى رزقها. مفرجة عن كربها. فى مجال فسحها

وتأمل سطح البحر وإذا به كالمرآة صافيا سويا . فشعر بما لهدوئه وسكونه من سلطان على الوجدان . واستسلم للأفكار استسلامه للتيار . وإذا ما هامست نسمات السماء أديم الماء . شجاه صفيقه . وهو يلامس زورقه ويهامسه . ثم تطرقت النسمات إلى أنفاســـه فأنعشته . واستنشقها إلى أعماق صدره فأثلجته وطيبته . وكانت أنوار الشمس قد شتتت شمل الكواكب مع ليلها . فأصبحت روح محمد وحدها هى السابحة فى سمائهـا . المسبحة باسم بارئها . فى فسيح أرجائها . والممجدة بقدرة محرك الشموس فى أفلاكها . وموقدها فى نيرانها . ومضيئها فى أنوارها . وهاديهـا فى جوباتها وجولاتها . ومثبتها فى تماسكها وتجاذبهـا . سبحانه خلق كل شىء بإرادته . ووفق كل شىء بحكمته . وحرّك كل شىء بمشيئته . فسيّر فى العوالم آلاف الكواكب والسيارات. تتحرك بانسجام. وتتماسك بانتظام . وتبزغ بميعاد . وتأفل بميقات . وقد أوجدنا نحن البشر الضعاف — على ذرّة من صلصال . تدور بنا حول الشمس وعلى محورها حتى تدوخنا وتصرعنا .

قناة غامرة :

مسّ المجدافان المـاء مسآ خفيفا . ولمساه لمسا لطيفا . فساير القارب الساحل تسايره ظلاله على الصفحات الصافية . إلى أن أتى خليجاً كلما ولجه محمد بقاربه ثم هادن بمجدافيه . أخرجته المياه . فتوقف كى يتعرف سرّ ترنقها وخفىّ ترقرقها . تذوّقها وإذا بهامخضرمة - مزجت العذب بالأجاج . فأيقن أنه فى مصب نهيرآت بما أنزل الله من مزن يحيي به الأرض بعد موتها .

دخل محمد بقاربه القناة وتأمل ضفتيها . وإذا بالأرض حواليه عاليه . تنبت الأعشاب وتخرج الأقصاب : وتأوى الضفادع وتثوى القواقع . وتوغل فى القناة . وإذا بالنبت يتزاحم . وبالمدر يتراكم . وقد علت الأقصاب ومادت أوراقها المتدلية تلاعب أطرافها صفحات المياه الجارية . وشجاه نقيق الضفادع وزقزقة الحشرات . وخرير الماء وحفيف النسمات . وتغريد الأطيار فى الأوكار . وصرصرة الجدائد . وقرقرة الهداهد .

والى محمد السير فوجد بعض صائدى السمك ممسكين بخيوطهم المنغمسة فى الماء . هادئين صامتين متبصرين . متأملين مؤملين متصبرين . مستبشرين خيراً كثيراً . منتظرين رزقاً وفيراً . وقد وضع كلٌ سلته بجواره . يودعها ما يأتيه القدر من عطاء . وما يقوم به الخيط من وفاء .

سمكات غافلات وشبكات غادرات

سمكات غافلات . إذا ما لحظت إحداهن فى غدواتها وروحاتها الطعم يتأرجح فى المياه الصافية . أبهرتها غضارته وسحرتها نضارته وأغراها مظهره . فاقتربت ترمقه وتتأمله وتعجب منه . ثم حامت حوله ـ وقد أضلتها حماقتها . وأعمتها غريزتها ـ تترغبه . وتُعجب به وتشتهيه .

راودها الطعم فدر لعابها على فريسة غادرة وغنيمة ماكرة . قدرتها رزقا سهلا سائغا . وطعاما هضيما سابغا . وأخيراً أضاعتها الحماقة رشدها . فاندفعت إليه متصببة تلتقمه . إشتهته فقضمته . واستساغته فخضمته . ولكن السنار تركز فى خيشومها فأوجعها وآذاها . وكلما حاولت منه تخلصاً ازداد فى فمها إيلاما وتحكما . وفى أنفها تثبتا وتمكنا . إستعصى عليها أمرها وامتنع عليها هربها . وقضى عليها أن تموت بسعى زعانفها . ورغم خياشيمها .

حاولت السمكة النجاة ـ متخبطة بين يأسها وأملها . فغمزت الخيط

مراراً وسحبته تكرارا . فأشعرت صائدها هزيمتها . وأسرّت ليده الجبارة محنتها .

نشل الصياد السمكة على غرّة من عالمها الحيّ . وأطاح بها فى هاوية الهواء . لينفذ فيها حكم القضاء . فخنقها الفضاء كما يخنقنا الماء . اختنقت . فارتعبت وارتعدت . وارتجفت فى الجو وترقصت . معلقة فى طرف الخيط الغدار . ولكن هيهات أن يثير تلوّيها من عطف صائدها . وهيهات أن يدرّ تخبطها من رحمة رائدها .

مدّ يده العظيمة وأمسك بجسمها الأملس الزلق . وضغط بإبهامه الخشن على خيشومها الرقيق . ونزع السنار فجرح فمها وخدشه . ومزّقه فأدماه .

تألمت السمكة فالتوت . وتوجعت فتعوجت . وهى تحاول التخلص من أصابعه الحريصة . والتملص من يديه الخشنتين الجشعتين . ثم رماها فى السلة على زميلاتها . فانتفضت وقفزت . مستشعرة دنوّ أجلها . إنتفضت . وهيهات أن يلتئم جرحها ويحتقن دمها . وقفزت . وهيهات أن تصل إلى عالمها .

وما زالت السمكة ترسل بريقها المتألق . حتى أضناها الجهد . فكلت ويئست . وانحطت قواها ووهنت . ثم تعجلت أنفاسها . فانطفأ وهج عينيها . إذ غشتهما سحابة ـ هى ظلة الموت ، وما لبثت السمكة أن استلقت جثة هامدة على أخواتها .

* * *

استأنف محمد جولته ، يضرب سبيله فى القناة . إلى أن أتى شبكة عظيمة منبسطة على مستوى الماء من ضفة إلى ضفة ، وقد تدلىّ طرف منها فى أعماق الماء من ناحية وروده ، وتثبتت أطرافها الأخرى من نواح ثلاث على أوتاد دُقت فى أعماق الأرض

يأتى السمك مع ورود الماء إلى الشباك المسترسلة فيتوقف قليلا ثم يثب ليساير موطنه فى جريه ، فيساقط على الشباك المنبسطة ، ثم يحاول العود إلى الماء الدافق ، والتخلص من الهواء الخانق ، فيضطرب حائرا ، لا يدرى كيف يكون الماء تحته على قيد قفزة منه . ولا يكون فى متناوله ، وما زال السمك يتقلب ويتعوج ، وقد تألقت قشوره الفضيه تضيئها وتلألئها أشعة الشمس الذهبية ، فى ثنايا الشباك الكتانية ، حتى يعتريه وهن ، يهبط عزيمته ، وتصبه حشرجة ترعش خياشيمه ، ثم تفارقه آخر نسمة من زفراته ، والحياة على مدى وثبة من زعانفه .

ثم يحضر صاحب الشباك منهللا لما أتحفه به الحظّ من خير كثير ، ورزق وفير ، يجمع الأسماك ويحملها إلى الأسواق ، فرحا مغتبطا ، وقد حرمها إلى الأبد مأواها ، لتكون طعاما سائغا وغذاء سابغا لجياع البشر . تجد فى أحشائهم مثواها ثم منتهاها .

وقف محمد يشاهد الدرر المتألقة فى نزعها ، وكانت وشيكا متنعمة بوفرة حياتها ، ترعى فى مواطنها لتشبع بطونها ، فأصبحت تتخبط مختنقة فى جونا لتشبع قريبا بطوننا ، رآها تتلبط فى أكفانها الكتانية متعثرة ، فأشعرته رجفتها وقفزة موتتها ، بما جبل عليه البشر من شره وشر ، وكأنه سمكة يشارك السمكات سوء حظها وخطير مصيرها ، ضاقت نفسه فى الفضاء ، وضاقت أنفاسه فى الهواء . فعاد أدراجه وخرج من القناة واستأنف السير يضرب ماء البحر بما أوتى من بأس وغيظ . ناقما على صيادى السمك ، حانقا على آكلى السمك . وما زال يشقّ سبيله فى العباب الأزرق الهادىء حتى كلت يداه . ووهنت قواه

استراح قليلا ثم أدار برأسه ليتعرّف مدى مسيرته . وإذا به على مرحلة

ميلين من الميناء . وقد بدا البحر أمامه عظيما لانهاية تحدّه . تنبجس زرقة السماء الصافية من أعماقه . وتنعكس عسجدية الشمس المتألقة على لجين صفحاته .

توقف محمد وهو يتدبّر مغامرة تلهيه عما أصابه به مظهر السنار والشباك من جزع . وتنسيه ما أنابه به نزع الأسماك من فزع . وقد خشى لو بقيت صورتهـــا مطبوعة فى ذهنه . معلقة فى مخيلته . أن يعاف أكل السمك . ولا يخفانا ما فى شيهّا من استساغة ولذة ـــ لذة للأنف . واستساغة للفم . وقد سخّـر لنا الله مواطنها . لنتناول منها حليا ولحماً طريّا .

شاهد الفتى محمد مأساة السمكات ، فكان له فى نزقها عـبرة ، وكان له فى غفلتها موعظة .



مغامرة نهارية

إستأنف محمد السير إلى جوف البحر . وقد شرعت نسمات الضحى تسخر من الماء فحركت أديمه . ثم هبت الرياح فهزت أعماقه ولكن الزورق سار طوع إرادة الفتى . وما زالت اللجج راضخة لمقذافيه حتى ثار سخطها . فتنفست عن كمدها . ثم لفظت كيدها . ولطالما أنس لغضبها . وتصبب لسخطها . وولع بنفثات غيظها . ولطالما شغف بصخب ضجاتها . وشغب عجاتها .

ثار الماء وماد . فكانت منه رواس ووهاد . ولكن محمدا والى الجهاد . وقد كادت لججها تغلبه — هو الصغير الطريد في أحضانها . الشريد على متونها . وكادت أمواجها تقلبه بتقلب أثباجها . وقد أرغت وأزبدت . وتضاخمت وتصاخبت . وجرجرت وزمجرت .

عاصفة ناقمة :

إقشعرت الأجواء . واكفهرّت السماء . واهتزت الأرجاء . وثار الماء وأغار . وهبط وغار . فكانت له ضوضاء . وكان منه رغاء . كأنه يبغي من الفتى منقلبا خطيراً . ومصيراً مستطيرا . وما لبثت العاصفة أن تفاقمت سورتها . وتناقمت ثورتهـــا . فارتعبت أحياء الماء والأرض والسماء - الإنسان وَجِل . والسمك وَجِف . والطير هَرب . وقد أصبح قارب الفتى كالسنبلة في مهبّ الرياح الهاتكة . والأمواج الفاتكة .

فقد الماء صوابه ففقد صفاءه . وصار عكرا كدرا . وقد هاج وماج . فأصبحت له وهاد جارية ذات لجاج . وجبال سائلة ذات عجاج . وأضاعت مطية محمد توازنها وهي في ثنايا اللجاج تميد . وفقدت توازنها وهي في حنايا الأثباج تحيد .

العاصفة غاضبة . والأمواج صاخبة . والرياح نائمة . وقد تلبدت الغيوم القاتمة . تشقها البروق اللامعة . كأنها سيوف قاطعة . نشرت لتشتت ظلمات نقع بأسنتها الساطعة .

ورغم العاصفة وغضبتها . والأمواج وعجتها . والرعود وضجّتها . والرياح ورجّتها . فما زال محمد رابضاً فى زورقه . واللجج تدهوره فى أحضانها . وتدحرجه على أثباجها — مرغية النواصى . مزبدة القوادم والخوافى . حتى أتته موجة جبارة . صفعته فأدوخته . ولكنها لم تذله ولم تذهله . وهو مازال رغم صغر سنه ورخص عوده . رابط اليأس . ثابت الجأش . خرج الفتى سالما من الموجة وصفعتها . ولكنها أطاحت بأحد مقذافيه فى طينها . وهشمت دفته وشتتت حطامها . وانسابت المياه فى القارب بعد أن تفدّغ صــدغه وتصدّع قاعه . وهبط بين اللجج كأنه يتحسس تهادنا على ثائر سفوحها . وصعد كأنه يتلمس تخلصاً على فائر طفوحها .

تناول محمد مجدافه الثانى . وجعل منه تارة جارفته . وتارة دفته . وكانت الموجة المقبلة تدفعه إلى الأمام ذراعا . واللجة المدبرة تجرّه إلى الوراء ذراعين . ومازال فى تقدم وتقهقر وإقبال وإدبار . وهو يبتعد رويداً عن الشاطىء المنشود . حتى أضاع مجدافه الثانى . فأصبح أعزل ضائماً . لا طول له فى غير حطامه . ولا حول له فى غير إيمانه .

ثم لم يجد بدا من التحايل فى سبيل الخلاص . فربط حبل قاربه إلى رسغ يده . وتحين إقبال موجة قوية ارتمى فيها . وخاض غمارها يساير جريها . إلى أن تجاوزته . وتركته يتخبط فى اللجة المتقهقرة تسحبه إلى جوف بحرها . وما زال الفتى يساير الأمواج المقبلة . ويغاير اللجج المدبرة . دون قنوط

أو إجهاد أو هلع . إلى أن أتته موجة ضخمة ، جرّته فى تلابيبها ، وابتلعته فى جلابيبها ، ثم أطلقته ، وإلى البرّ طرحته .

* * *

« خرج محمد الفتى من المعمعة مضعضعاً ، وخرج منها القارب مصدّعا ، ولـكنّ الفزع لم يجد فى جنانهما مجالا ، والجزع لم يجد من عنانهما منالا » .



بين الغروب والشفق

أذنّ الظهر وقد آلم الجوع فتانا محمد إثر رياضة بدنية مجهدة ، فأكثر من الطعام وكان دسماً غليظاً ، وعلى خلاف عادته — ترك الأوز والبطّ وفضل قليلا من النوم ، التماساً للراحة فى يوم اشتدّ قيظه ، وتلهب وهجه . وقد هدأ البحر وسكن ، فلم ينبث بلفظة من نسماته ، ولم يكشف عن درّة من بسماته .

شارك الجهاز الهضمىّ الطبيعة عمليتها ، وكان الحرّ وقيظاً ، وقد تضخمت التخمة . وتحتمت الوخمة . فامتزجت أبخرة المياه والأرض بأبخرة مسام الجسد . فغرق محمد فى نقعة من العرق . وفى نومة لايشوبها فتيل من الأرق .

أفاق من غفلته وإذا بالشمس تشدّ رحلها للرحيل . وما أبدع رحلها . وما أروع رحيلها . وقد شافه لهبها أديم البحار ، مشافهة الليل للنهار . يمهد لها سبيلها حتى تعود فى الغد مبكرة الإشراق تشق فجرها . فتجلى ديجورَ الليل . وتشتت شمل الظلمات . فى ثنايا السطعات واللمعات .

لامست الشمس أفق البحر الساكن وهامسته . وقد انتفخت أوداجها . وأحمرّت سحنتها كأنها فوهة تنوّر نزع غطاؤه . فبدا السعير فائر اللهب . ثائر الوهج ، وقد اندلعت منه ألسنة النيران . فجمع الأفق من شتى الألوان - صارخة وباهتة - مابين أحمر قرمزىّ وأحمر قانٍ وبنفسجىّ وأرجوانىّ وأصفر فاقع وأصفر أقحوانىّ - مزيجا ساحرا . يتغير ويتبدل فى سبحاته تبعا للسجحات الضوئية التى تجرها الشمس فى أذيالها . وتمسح بها الآفاق فى أسفارها . ثم تمحى فيها آثارها .

تجرّ فى اليمّ أذيالا مصبّغة   كالخود تختال فى أذيال جلباب

جرّت فى اليم أذيالها . فتجلت ثورة الشفق فى الأفق تجلياً يسحر الألباب . وقد شاطرها الشعور فى تضارب ألوانها وتمازجها . وسايرتها ضربات القلب فى تطورات سطعاتها . ورددتها الأنفاس فى تحورات سجحاتها وتقلبات سبحاتها ، وأنشدت فيها الأشجان شجىّ نبراتها ، ومجدت فيها الأرواح للخالق عجيب آياته وبديع معجزاته .

تمتع محمد بمشهد رهيب فتان . نسجته الأشعة الذهبية ، وقد شرعت تنحسر ما شرعت الشمس ـ تندثر بتدرج وتبيد فى اللجج الهادئة . تريح البشر قليلا من عصرها وضحاها . وتزيح عنهم قليلا من حرّها ولظاها . وتترك لليل ـ كما تركت للنهار قياسا ، وقد جعل الله هذا معاشا . وذاك لباسا . « وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا » (٢٥ — ٤٧)



فى جنح الليل

الليل هادىء لا يزعج سكونه رغاء . ولا تحرّك ساكنه أنواء . سكن البحر وسكن الهواء . وسكن الخلق وسكن الماء .

تسرب محمد فى ظلمة الليل إلى البحر متستراً . وقصد الزورق واستقله مستهتراً . وتناول مجدافيه يضرب بهما الماء ويتتبع الساحل حثيثاً . وما زال دائباً ــ ساعة بعد ساعة . إلى أن بلغ مصب نهر عظيم ولجه صــــاعداً فى مواجهة تيار فيضه العذب . متحصناً خلف الفلك الرابضة إلى البر تشق كتل الفيض بمناسرها وتهبط من وطأتهــا . وتحد من شدتها . ورغم تحدى السفن اللجج فلم يكن كفاح الفتى لها هيناً . ولم يكن سبيله فيها ليناً . . توقف قليلا . يشرف على البرزخ ــ حاجز البحرين ــ العذب والأجاج . ويتلو فى الذكر آيات ربه البينات سبحانه : « مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذّبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعــلام . فبأى آلاء ربكما تكذبان » (٥٥ ــ ٢٣ ــ)

« أفرأيتم الماءَ الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون » (٥٦ ــــ ٥٨) .

ماء النهر افتتن :

ماء البحر سكن . وماء النهر افتتن . أفتنه زاخر فيضه . وعذب عبابه . فتبجح واغترّ . وتكبر وتبختر . وصعر لججه للبحر المستكنّ وتجبر . وتباهى « أنا السيد الأقدر » . ونسى أنه صنيع البحر الأكبر . منبع نشأته . ومرتع

فطرته . ومربع قطرته . ومنجع غمرته . . . أعماه البطر فثار . وذار على مياه البحر وجار . فكانت له ضـــوضاء بعيد مداها عن الأحياء — اللهم إلا عن أحياء الماء — لحياتهم أصبحت فى هـذا الرغاء حياة كرب وشقاء وتعب وبلاء . وتصاعدت الضوضاء من الماء متكاتمة . فكاد أحياء الأرض لا يسمعون منها سوى الأصداء — أصـداء شائعة فى الفضاء . ضائعة فى الهباء — اللهم إلا إذا خاضوا بقواربهم غمارها . وغامروا بحياتهم فى ذمارها .

النهر والقمر يتناجيان :

بلغ القمر ربع شهره مشرقا لا هو بالهلال المستنير فيسمح للنجوم بالبزوغ متلألئة فى كامل وهجها . ولا هو بالبدر المستدير فيترك للكواكب مجال الأفول متضائلة فى باهت سبلها . بل هو متردد بين هـــذا وذاك . والكواكب متعلقة متحيرة فى أفلاكها ، وقد تغلغلت سطعاتها فى سطعاته ، وتقلقلت لمعاتها . وتململت لمحاتها بين البزوغ والأفوال فى انحراف بزوغه وانتصاف أفوله .

نشر القمر ذوائبه منسابة فى فسيح مجاله ، ونادى بفجره ، وقد ترقرقت ضياؤه فى زرقة سمائه ، ثم هبطت ناصعة فوجدت سبيلها ، وقد أسفّت هيادبها فى فيض النهر — انسكبت فيه فأرجفها وأرجفته ، ثم ترقرقت فيه فأبرقها وأبرقته .

تبادلت مياه النهر وضياء القمر التحبب والتلاقى ، والتصبب والتناجى ، تجاذبتا وتصادّتا ، وتمازجتا وتفرقتا ، ثم تقارنتا وتداعبتا . وقد هزتهما فى جريهما متحاضنتين متجافيتين ، متهابطتين متناجيتين ، سكرة التدلل والتذلل . والتشوف والتشوق ، ورنحتهما نشوة التصبب والتذوق ، والتحبب والتعشق .

لم يسمع محمد فى سكون هذا الليل الرهيب سوى صرير جدجد مختبئ فى أعماق سفينة يجاوب صرير صارية . وقد خدعت سطعات القمر فى بعض القرى ديكا أرقه النوى وحرّقه ألجوى . فصاح بآذان فجره . وهو مازال فى منتصف ليله .

ولم ير محمد إلا نجوما وهنة أضألتها غمرات ضياء القمر فى سمائه . ولم ير إلا فلكا واحداً جريئاً ـ هو فلكه ـ يشقّ اللجين المضطرب فى سطعات جريه . وإلى ما بعد النهر رأى المنارة ساهرة فى وحشة الصخر . شاهرة مصباحها فى أحضان البحر . تدير أنظارها المتألقة خلال بللوره فى فسيح مراصدها . تهيء للفلك سواء مقاصدها . وتدخلها سالمة آمنة مراقئها .

وكأن « الفنار » قد تعدى اللياقة . وتصدى اللباقة . فصعّر صدغيه الوهاجين للقمر متحديا . وأبرق عينه العظيمة يجيلها فى الفضاء . فسيب سهام لحاظه الألاقة تسبر أغوار السماء . كأنه يهدى الكواكب المتضائلة فى أفلاكها وفق إشارته وطوع إرادته .

وما زال محمد يقاوم التيار بمجدافيه . حتى كلت يداه . واحترقت كفاه . فتلمس إلى البرّ راحه . يستعيد فيها قواه . ويمتع الطرف بجمال الطبيعة فى غامر نجواه .

الفلك العتي .

ورغم جمال المجال . فقد هيجت الوحشة وساوس الفتى وحركت هواجسه . وخشى عاقبة التمادى فى الخيال . بعد انتصاف الليال . يستأخره الآل . فتتفاقم الأحوال . وتتناقم الأهوال .

خاف فأقلع . وقد أنس فى انحدار مياه النهر ضمان الوصول إلى المصب

وشيكا.رفع المجدافين. وسلمّ القارب للتيار . فانطلق فى عالم اللجين السيال . انطلاق النفس فى عالم الخيال .

شيع محمد القمر ورحّب به فى متناوب ظهوره خلال السحب وتحجّبه. ومتع النظر بفيض ضيائه . وإذا بخيال عظيم على بريق اللجج يهيم . هو ظل سفينة هائلة فتحت فى الجوّ أشرعتها العملاقية وهى تشقّ سبيلها فى مواجهته كأنها رخّ الأساطير . نشر جناحيه متساقطا على فريسته .

غمره الخيال الغدار . وقد انقشع عنه خيال الأشمار . واكتنفه الطود الجبار . فتحجبت عنه الأنوار ، وحفت به الأخطار ، مقصفة الأعمار ، ومشرّدة الأفكار .

وهاهو بحارنا الفتىّ ، يحمله التيار إلى الفلك العتىّ ، وقد حال بينه وبين البر حيث المياه كصفحة الزيت تجرى هادئة سوية ، وكاد يكون فريسة قواعده ، إن لم يتحاشاه سحقه ، وقد اهتزت صارية كان لها صرير كأنه صرخة مصروع انتزعت من ثناياأعصابه . ثم سمع على ظهر السفينة ضجيجاً انحرفت على اثره قليلا ، وتركت له منفذا يتفاداها فيه

ولكن أمواجها قذفت الزورق الهائم . فهرول كالسهم الطائش وإذا به ينتفض على أثباج اللجج ويرتجف

عبرّ محمد نفسه جمودها وجحودها ، ونبذها نشاطها وجهودها ، ورفع إلى السماء عينيه ، وإذا بالقمر يشق طريقه خلال السحب : « مابالى لاأستنير بالله الذى أنار هذا القمر ولا أستجير بالله الذى سخّره، وقد آمنت به وأيقنت فى رحمته ، يخرجنى من قاربى كماأخرج يونس من أحشاءحوته ، ويخرج قاربى من اللجج كما أخرج فلك نوح من طوفانه »

إستكشف محمد موضعه . فاذا به على دوامة يتدهور ماؤها فى جوفها . وفى هوة نهرها ووحشة ليلها .

أفاق لنفسه . وملك زمام رشده . وما زال مشرفا على حافة المياه المتدومة . وقد شرع زورقه يدور على محوره ـ تصعد وتهبط . وتأرجح وتخبط . وترنح وتلبط . فوجب عليه أن يسرع بعمل حاسم . قبل أن تستدرجه المياه المنشنجة إلى سجالها .

علم يقينا أن لحظة تلاكؤ وتباطؤ تضيعه فى المياه المتدهورة إلى أعماق الهوّة السحيقة . ثم تهشمه على جوانب الصخور الفتيقة .

ذكر محمد ربه . فاستجلى تبصره . واستملى تصبره . واستكمل تدبره . فأمسك بجدافيه مستعدا للضربة الحاسمه « إما أنقذتنى . وإما أذلقتنى »

ترك القارب يجرى فى هوى التيار حتى واجه منسره البرّ منحرفا عن المياه المتدومة . فضرب الماء بما أوتى من قوة وبأس ، وإذا بالقارب يندفع كالقذيفة خلال الموج المتلاطم . وبالأرض يترّطم ، وفى المدر الأسود يتحطم ، ثم خشى محمد من المياه مراوغة ومخادعة . فوثب ممسكا بزمام قاربه وقفز إلى البر ناجيا .

وقف محمد هائبا حائرا ، بائر القوى خائرا ، فى تلك البقعة المقفرة من الأرض السوداء اللازجة الزلقة ، يجيل النظر ومازال مقود الزورق فى يده يناجيه فى غربته ووحدته ، وقد كان كيسا فى نجاته ، حذقا فى نجدته .

تتبع نظر الفتى البرّ جنوبا ، فرأى القرى راقدة تحت مآذنها المتصدئة ، وقد أطفئت أنوارها ، إذ نام أهلها . وسكت كلبها ، وكأن السنة هبطت على خفراتها ـ سنة حلوة هادئة أهبطتها ضياء القمر ، وأفعمتها جرجرة المياه الجارية على سفوح الحجر والمدر ، و « الفنار » من بعيد يجيل أنواره فى كبد السماء وفى آفاق الأرض والماء ، رأى محمد مصباح المنارة فسبحت روحه

فى أنوارها ، وذكر المثل الأعلى لأنوار ربه - « الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولولم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » (٢٤ — ٣٥)

تلفت إلى البر ، فكشفت له الضياء حصنا عتيقا أنصعته أشعة المنارة وهى تمر متخطفة على جدرانه ، ومازالت المصابيح فى النوافذ مضاءة أو متضائلة

قصد الحصن مستأنيا ، وبالأضواء مستأنسا ، وقد أمسك بالحطام ، يجر به الحطام : الحجر خشن ، والمدر زاق ، والكلأ شحذ ، والقدم وهن ، وقد تصبب العرق ونفحه الهواء فأصقعه ، وأهبطت وطأة الإعياء قواه ، حتى كادت تصيبه غشية الإغماء ، لولا أن صرخت فيه نزعة البقاء ، وسيرته الغريزة إلى مرفأ الحصن العتيق ، وقد ربضت فيه الزوارق والسفن ، رآه الحراس وإذا بهم إلى نجدته يفزعون ، وإلى زورقه المتصدع يهرعون .

رحّب قائد الحصن بالفتى وأدناه منه ، وأدخله غرفة فسيحةً مدّت على أرضها الطنافس وتألقت على حوائطها المصابيح والتحف ، وتكدست الوسائد على التخوت والمقاعد ، وتناثرت الأسلحة على المناضد

دخل محمد وقد أنهكه التعب ، وأرهقه النصب ، فارتمى فى مقعد وثير الرياش ، يلتمس الراحة وينشد الدفء

دعاه القائد لتناول الطعام ، فأكل ما أشبعه ، وشرب ما أدفأه ، ثم شرع فى أن يقص عليه رحلته ، ويروى له أهوال فسحته ، فبادره القائد موبخا ، ونهره غاضبا أو متغاضبا - « أبلغنى رجالى جميع مغامراتك ومخاطراتك ، فهم رصد عليك وعلى أمثالك من الأبطال المغرورين ، وجدوا زورقك على شاطىء البحر مفدغا ، غداة يوم اكفهرت أساريره ، واقشمرت أعاصيره.

اكتشفوا مجدافيك . وقد بعثرت حولها حطام دفتك . . وها أنت ذا اليوم ولم ترتدع ، تأتيني فى الهزيع الأخير من الليل ، صغيراً شريداً . وقد تصدع رونقك كما تفدغ زورقك ، وكادت لجج الفيض برواسبها تشبعك . وعلى الصخور الصلدة تهشمك » . .

ثم هدأ القائد وتبسط ، وقال : « ولكنى أمتدح شجاعتك ، وأشيد ببطولتك ، شجاعة قلما أصادفها فى مجالى ، وبطولة قلما أحققها فى رجالى ، وإنى أراك ستواجه فى مستقبلك الطويل من أهوال القفار ، ما يضارع أهوال البحار ، تهذبك ، وتدعم خلقك . . وستشق - بإذن الله - لجج الحياة إلى عمر مديد وحظ سعيد ، بعد أن تجشمك من المآسى وتكلفك من الصعاب ما قد يشيب فى الشباب الناصيتين ، وما قد يحنى فى الكهولة الكاهلين . . . والآن فارجع برعاية الله وفى حراسة رجالى إلى ذويك آمنا مطمئنا ، هيأ لك سبحانه وتعالى توفيقاً وسداداً ، وحكمة ورشادا . فتصبح جديرا بكفاح الحياة المرير ، فى هذا الجيل المريب والزمن العصيب .



فسح الربيع

وفى يوم صفا جوّه وحلا نسيمه من أيام الربيع الزاهر . يمم الفتى محمد إلى العاصمة . قاصداً بساتينها الغناء . ورياضها الفيحاء ، مفعم القلب أسى وحزنا ، إذ استشعر لوعة تيتمه ، واستذكر حنان أبيه وأمه ، فى وطأة ضجر وحدته ، وخطر خلوته .

ولج محمد الرياض لعله أن يجد دواء لعلته ، وشفاء لكربته ، وإذا به فى رواق طبيعى جميل لا نهاية تحده ، صفّت على جانبيه أشجار تعالت جذوعها وتطاولت فروعها ، متعوجة ملتوية ملتفة منحنية منثنية ، ممتدة ذات اليمين وذات اليسار . إلى أن تلاقت أو كادت تتلاقى . وقد سجتها مظلة خضراء من الأوراق الحية ، فيها ترشقت الزهور الحمراء والصفراء ، وفيها ترقرقت فتيت الظلال والأنوار . ثم تقطرت خلالها أشعة الشمس وانتفضت ضياؤها على الأديم اللامع انتفاض أنوار أقباس المعابد .

تأمل محمد الرواق . وكأن الملائكة تنفحه بأنفاسها . وتتحفه بأنوارها . وقد سمع حفيفاً خفيفاً

« من نسيم كأن سراه من الأد   واح مسرى الأرواح فى الأجساد »

وقف يتنسم هذا . ويتوسم ذاك . فشعر بالهم الذى كان جاثماً على صدره قد خفّ وشفّ ، ثم انكشف وكفّ .

تهامست الملائكة ، فهمست معها نفسه مسبّحة ، وتصاعدت صلوته مع الأرج مكبّرة .

* * *

خرج محمد من الرواق وإذا به فى حدائق ، ذات بهجة ، . غشيها الفجر بفيض فضته . ثم وشيها شعاع الشمس بفيض عسجديته .

رياض غناء زينتها أحواض الورود والزهور والرياحين. خلال البسط الخضراء ، منوعة التكوين ، مبرقشة التلوين : منها الأبيض والأصفر والبنفسجي . والأزرق والأحمر والبرتقالى ، ومنها ما ألف بين أكثر من لون . ومنها ما مزج لونا بلون ، وقد تلألأت عليها قطرات الندى تلألؤ الماس فى الضياء .

« والطلّ فى سلك الغصون كلؤلؤ رطب يصافحه النسيم فيسقط »

* * *

« والورد فى سرر الغصون مفتّح متقابل يثنى على الفتاح
ضاحى المواكب فى الرياض مميز دون الزهور بشوكة وسلاح
مرّ النسيم بصفحتية مقبّلا مرّ الشفاة على خدود ملاح
ويعانق النسرين فى أغصانها كالدر رُكّب فى صدور رماح
والياسمين لطيفه ونقيه كسريرة المتنزه المسماح
والجلنار دم على أوراقه قانى الحروف كخاتم السفاح
وكأن مخزون البنفسج ثاكل يلقى القضا بخشية وصلاح(١) »

شاهد محمد كل هذا فى مستهل ربيعه وكأنه يردد فى نفسه :

« ورد الربيع فمرحباً بوروده وبنور بهجته ونور وروده
وبحسن منظره وطيب نسيمه وأنيق ملبسه ووشى بروده (٢) »

وقد أمده الربيع من لذات خيراته ، ومتعات نفحاته ، بما يبهج العين ويشرح الصدر ويحيي القلب. فكأنه ينشد .

---

(١) أحمد شوقي (٢) زهرية صفى الدين الحلى

هـــذا الربيع يبيع من لذاته أصناف ما تهوى فأين المشترى
روح الزمان هو الربيع فبكرّ وانهض إلى اللذات غير مفكرّ
وأفرح به فلفرحة بقدومه رول الشقائق فى القباء الأحمر
والكون يبتهج وخفاق الصبا يحي القلوب بنشره المتعطر(١)

وكأن أحواض الورود والزهور والرياحين صحاف وأطباق عظيمة حوت كل مالذّ وطاب من ثمار شهية . مدتها الطبيعة فى فاخر ولا نمها . وأبدية ربيعها .

وأشجار بسطت أغصانها وارفة الأوراق متفرعة متفرقة . تتفاوت خضرتها بتفاوت مائية حيويتها . بعضها مستدير ، وبعضها مشرشر ، وبعضها كالأكف منبسط . وبعضها كالشعور مسترسل . تلاعبها نسمات خفيفة مرحة . إذا مست الخدود أنعشتها . أو لمست الجلود أرعشتها .

أشجـــار .
« كأن غصونهـا سقيت رحيقا فمالت مثـل شراب الرحيق »

وقد بدا خيالها على صفحات مياه الجداول المتعرجة الملتوية الجارية خلال البسط والأحواض . رآها الفتى محمد زكأنه ينشد فى نفسه .

وحديقة ينساب فيها جدول طرفى برونق حسنه مدهوش
يبدو خيال غصونهـا فى مائه فـكأنمـا هو معصم منقوش

وشجير من كل لون غلبت عليه خضرة النماء . تخلل وريقاتها الرقيقة أوردة رفيعة متفرعة . وآنية وأكواب زاهية الألوان . نقشت نقشا رقيقا . ووشيت وشيا دقيقا . لا تضارعه صنعة أقدرفنان من بنى الإنسان . ركزت فى شقوق صخور صماء . زرقاء وصفراء وحمراء — أخذت من لون .

---

(١) شمس الدين الكوفى

وتعرّقت بأكثر من لون . فبهرت الأنظار . فى ضياء النهار . كأنها كتل من كريم الأحجار . تلألأت فى ندوة الأسحار .

وقد انسابت المياه خلال البسط الخضراء . فلاعبت فضية صفحاتها ظلالَ الأغصان الممتده . والأوراق المتلاعبة . والورود والزهور المتداعبة . وأجنحة الأطيار المرحه . وسبحات الأنوار الفرحه . وقد شرعت الشمس تبدع هذا الوشى الفتان بخيوط أشعتها الذهبية .

والريح تعبث بالغصون وقد جرى   ذهب الأصيل على لجين الماء .

* * *

رأى محمد هذا وذاك . وسمع حفيف الأشجار . وخرير المياه وتغريد الأطيار . وتنسم نفحات الأسحار . وفوحات الأزهار . فما شك أنه فى فردوس الأبرار والأولياء الأخيار .

شاهد الجنات . ولكنه لم يسترسل فى هواها . تحذرها إذ ذكر مصير آدم وحواء من اجتناء ثمرها . فلو استرسل وحاول استجلاء أسرارها . والوقوف على خفىّ جاذبيتها وسحرها لغواها . بعد أن يكون لها قد مال. ربما قد فتن . فتملك هى عواطفه . وتسيطر على حواسه . وتستبدّ به . ولن يلبث أن تضعف عزيمته ، وتخضع لسلطان الهوى إرادته . يتفاقم وجداته . وتتفاقم أشجانه . ويحور ميله شغفا فحباً فعشقا فهياما . فيهجر المجال العملىّ . ويسترسل فى المجال الخيالىّ . فيرتد هناؤه عليه وبالا . ولا يرجع إلا وقد أصابه منها ما أصاب شاعرا وقع فى شراكها . إذ استغوته فغواها . واستهوته فأهواها .

قضى الشاعر الأيام والليال مستلقيا على ظهره متقلبا على جنبيه . فى ظلّ دوحة طاولت الجوّ فروعها . ثم نكست إلى الأرض أعوادها . ارتمى فى

ظلالها . شاردا متحيّراً . يائسا متطيّراً . وقد تفانى فى جمال وجدانه وجمال خياله .

تعشقها فعشقها وهام بها . ثم أخفق فى حبه فابتأس . ثم لم يجد عنها سلوة فيئس . تعسٌ فى قربها يئسٌ . تعسٌ فى بعدها يئسٌ . لم يكتف بما منّت عليه من ظلّ وريف . وخرير وتغريد وحفيف . وأراد منها المزيد . وإذ غالى فى حبه أهواها . وهو لا يعلم مايبغى من هواها . ولم يجد بدأ من أن يفنى فى أغلال جواها . تُرى ماذا خشى من غوائلها ؟ حتى تدلى فى جدائلها؟.



الدستور القويم

كان الصديق فصيح اللسان . طليق البيان ، وقد حتم عليه تردده إلى مصر في بعض شئونه أن يجيد اللغة العربية ويتوسّع ، فيما شغفه بها حتى حفظ القرآن الكريم . ودرس تفسير آياته . ووجد فيه للفتى محمد النابه الفطن الزكىّ خير توجيه خلقىّ ثقافىّ بجانب التوجيه الدينىّ . يصبح به مثلاطيباً فى بلدته . وقدوة حسنة لمداته .

صدق الصديق فى تقدير الكتاب الحكيم . فهو على ما وصفه سيدنا علىّ بن أبى طالب — « كتاب لا تطفأ مصابيحه . وسراج لا يخبو توقده . وشعاع لا يظلم ضوءه . وفرقان لا يخمد برهانه . وتبيان لا تهدم أركانه . وشفاء لا تخشى أسقامه . وعز لا يهزم أنصاره . وحق لا يخذل أعوانه . . . وهو بحر لا ينزفه المنزفون . وعيون لا ينضبها الماتحون . ومناهل لا يغيضها الواردون . وهو معدن الإيمان وبحبوحته . وينابيع العلم وبحوره . ورياض العدل وغدرانه . وأثافىّ الإسلام وبنيانه ، وأودية الحق وغيطانه — جعله الله ريا لعطش العلماء ، وربيعاً لقلوب الفقهاء ، ومحاج لطرق الصلحاء ، ودواء ليس بعده داء . ونوراً ليس معه ظلمة . وحبلا وثيقاً عروته . ومعقلا منيعاً ذروته . وعزاً لمن انتحله . وبرهانا لمن تكلم به . وشاهداً لمن خاصم به . وفلجاً لمن حاج به . وآية لمن توسم . وجُنة لمن استلأم . وعلماً لمن وعى . وهداية لمن سمع . وحديثاً لمن روى . وحكماً لمن قضى » .

جعل الصديق من الكتاب المبين للفتى دستوراً قويماً ، حفظه إياه قلباً ولسانا ، بعد أن فقهه أغراض آياته وفهمه معانيها . وحضه على معرفة حقيقة

مبانيها ومراميها . وحثه على العمل بها سراً وعلانية فى سائر شئونه الخاصة والعامة . وتنفيذ أحكامها على الوجه الصحيح فى جميع مواضع الحياة ومراحلها ومرافقها — ازاء نفسه وازاء ربه ، وازاء أصدقائه وأعدائه ، وغرمائه وأصفيائه ، وازاء أهله وقومه وأمته ، وكان الصديق يجلس إليه فى صبيحة كل يوم وعشيته يعيد ويستعيد - « خصال حميدة اعمل بها . وعيوب بغيضة أقلع عنها . أتلو عليك آياتها . فاحفظها وتفهمها غير مشوهة من كتابك . بلغة نبيك . خذها قدوة لك فى دنياك . ومنجاة لك فى أخراك — » .

ثم يردف : « أعد واستعد كلمات ربك واعمل بها ولا تنس أنه قال : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور . والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير . ثم أورثنا الكتاب الذين أصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير » (٣٥—٣٢).

. . . « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته - أعجمى وعربى قل هو الذين آمنوا هدى وشفاء » .

ثم يقول : « أما ما أنهيك عنه : فلا تسرق ولا تحتل فى المال . ولا تقتل ولا تكذب ولا تنافق . ولا تنكث ولا تظلم . ولا تقامر ولا تخامر . ولا تسكر ولا تبذر . ولا ترائى ولا تبخل ولا تفسق . واحذر الهوى وغرور الدنيا والضلة والكبرياء . والتذبذب والكسل والرياء . والسخرية والعيب فى الغير والتنابز بالألقاب . والظن والتجسس والاغتياب . والريبة والوشاية والنميمة والإفك والغل والمن والأذى . والقسوة والفظاظة والحقد والبغضاء والغيظ والتشفى والخوف . والجحود والجهل .. واذهب من السيئات إلى الحسنات .

ومن الإغراء والخيانة إلى إقرار الجميل والتعفف والوفاء. ومن النزاع والعداء. إلى الإصلاح والإخلاص والصفاء » .

« وأمّا ما أوصيك به : فالتقوى وتطهير القلب . والاستقامة والتواضع والحب . والعدل والأمانة والإيمان. والتوبة والاستغفار والغفران . والعفو والقول المعروف والإحسان . والعطف والكلمة الطيبة . والبر والشفاعة الحسنة. والشورى والمودة . وشدا زر الأخ والتعفف . والتسامح والتقشف. والسعي الطيب فى الرزق والاعتدال فى العمل .

واصبر على المكاره . وأقم الصلاة وآت الزكاة . وأدعمهما بالصيام . وأنعمهما بالاعتصام . واختتم اليوم بعد اليوم بحمد الله وشكره . « سبحانه هو الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سـلالة من ماء مهين . ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » (٣٢ — ٩) « وبوّأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » (٧ — ٧٤) « الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا » (٢٠ — ٥٣) « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » (٧ — ٣٢) . « والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتمّ نعمته عليكم لعلكم تسلمون » (١٦ — ١٨) . « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة » (٣٠ — ٢١) . والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله

هم يكفرون (١٦ — ٧٢) ، ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فيه ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون (٣٠ — ٢٣) يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير (٤٩ — ١٣) خلق الانسان . علمه البيان (٥٥ — ٤) الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين » (٤٠ — ٦٤)

* * *

تلا الفتى آيات كتابه بكرة وأصيلا . ومن آناء الليل وأطراف النهار طويلا . فرسخت فى نفسه . وتأصلت فى قلبه . وعمل بها فى سائر شئون حياته . بمعونة الشيخ الصديق الذى أخذ بيده مترفقا إلى مجال الرجولة بأسهل الوسائل . ومهد له السبيل تمهيداً مشوّقا قويما . يهيؤه لكفاح اجتماعى يتهافت عليه تهافت الأسماك على أقواتها . دون أن تبتلع كبارها صغارها . ودون أن تخشى صغارها بأس كبارها . ودون أن تهتضم كبارها أرزاق صغارها .

ومازال محمد يتلو آيات الخالق فى سمائه وأرضه ومائه تلاوته لآياته فى حكيم كتابه . حتى بلغ أشدّه وحقق رشده . « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين » (٢٨ — ١٤) سبحانه « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب (٢ — ٢٦٩) .



فى سبيل البطولة

نواة الأسطول المصرى

مازال محمد يغامر على لجج البحار فى فتوته . مغامرته لها فى طفولته . إلى أن استقلّ يوما مع بعض رفاقه من فتيان قولة الأشداء فلكا يعبرون به البحر إلى جزيرة نائية . وما أن أقلعوا حتى فاجأتهم العاصفة . فتخوفوا وتوقفوا . وأرادوا التخلف . فتخلفوا .

أنزلهم محمد إلى جزيرة صخرية قريبة من البر . ووالى السير بمفرده فى الفلك على متن اللجج الهائجة . والأمواج المائجة : لجج كالرواسى تخفى عن أنظاره الآفاق . ثم تكاد تبلغ به السماك . ولجج كالوهاد تهبط وتكاد تجرف قاع البحر وتهجر مواطن الأسماك . وقد .

« أزبدت ثم جرجرت ثم ثارت ثم فارت كما تفور القدور »

والسفينة فى هذا الضجيج العظيم والعجيج الوخيم كالريشة

« أزعج البحر جانبها من الشد ّ فجنب يعلو وجنب يغور »

لاطمتها الأمواج وهى تجشمها . وأهبطتها الهوات فكادت تهشمها . وقد اهتزت أوتادها . وارتجت أصلابها . فتفلق صدرها . وتشقق عجزها . وتفدغ سفلها . وتمزق قلعها . وتقصف صاريها . مؤخرها غائر بين لجتين . هذه مدبرة وتلك مقبلة . ومقدّمها معلق فى الفضاء على قمة اللجة المدبرة . وقد تطاير منها الرذاذ غزيرا . وتساقط على محمد وفيرا . وهو مازال دائبا بمجدافيه يضرب الماء الثائر بما أوتى من ثبات وبأس . وكأنْ لا زوبعة هناك ولا عاصفة . ولا أمواج قاصفة . ولا رياح ناسفه . وكأنْ لا جلبة هناك ولا ضجة .

ولا ثورة ولاعجة . وكأنْ لافرَق هناك ولا غرق . ولاإشراف على غرق .
إهتزت اللجج اهتزازاً . فجعلت المياه كالحميم تفور . وغضبت الأمواج
فجعل الزبد كالرغاء يثور .

« ثم أوفت مثل الجبال على الفلـ لك وللفلك عزمة لاتخور »

تسلطت المياه من فوقه فائرة . وتفجرت من تحته ثائرة . ثم تفتقت
غائرة . ومازال محتفظا بجرئه وإيمانه . وقد أحنى التعب كاهله . وأضنى كليته.
ولم يثنه التعب ولم يخنه النصب. كافح وجاهد . جادّا مثابرا . كادّا مغامرا .
حتى حاز مبتغاه . وفاز بتمناه .

وقد أصبح بطل طشيوز المثل الأعلى لمصره . كما أصبح فلك طشيوز
نواة أسطول مصر فى بحره .

نواة الجيش المصرى :

وكان محمد جريئا كيسا يوم توقف اهل بروستةعن أداء ضريبة فرضها
الحاكم بأمر سلطانهوقد كاد يعجز عن تحصيلها منهملولا أن تطوع محمد للقيام
بمهمتها الخطيرة . ولم يبلغ العشرين من عمره .

استصحب قوة قوامها عشرة من خيرة الرجال . وهو مؤمن بآية ربه .
« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا
ألفا » (٨ ـ ٦) ذهب محمد برجال عشرة . فغلب أكثر من ألف . وهاجم
الثائرين منهم وأخضعهم . فهرعوا إلىدار الحاكم وسارعوا فى إيفاء ماعليهم
للدولة من مال — مابين عشية وضحاها .

كافأ إسماعيل الحاكم محمداً لما بذل من همة وحيلة وحزم . فى هذا الموقف
الخطير بمرتبة عسكرية . وزوّجه من أرمل ثرية . استوظف مالها واستثمره
فى الشئون التجارية . وبمقدرته وخبرته نجح وأثرى . .

الطالع السعيد :

وفى جمع من الأصدقاء وقف الشيخ الصديق . وبصوته الجهورىّ أعاد تنبؤه وأتمه . « ومع الفارق فى الحكم والسلطان اللذين أجلهما . ومع الفارق فى الرسالة والنبوّة اللذين أقدّسهما . لايسعنى إلا أن أعيد دلائل نبوغ محمد بن ابراهيم بن على » . فتى إسمه محمد . باسم نبيه . بسيم جميل وسيم . من الأب والأم يتيم . لا شقيق له ولا رفيق . ماله يسير . وحاله عسير . كفله عمّ ومات . بلغ رشده . ثم تجاوز أشده ما زال أمياً . وقد وعى آيات كتابه وعيا جليا . شرع فى التجارة فنجح . ومارسها فأفلح . وزوّجه ولىّ أمره من أرمل غنية . استثمر مالها فى التجارة فأثرت . وأثرى . ثم بزغ له نجم يمم إلى الجنوب . وطاول الجوزاء وتثبت وزها . وسيتبع نجمه فى شتى الأمصار . وإلى أقاصى الأقطار . تنثنى له رؤوس . وتنحنى له نفوس . وتطاف حوله كؤوس . يجرعها البعض سما كوّيا . ويرتشفها البعض رحيقاً شفيا » .

ثم انبرى الشيخ إلى محمد وقال : « ولعلك إذا ما زها نجمك . ووفى سعدك وسما عزّك . أن تشمل الصبيين يوسف ويحيي بعنايتك . وتغدقهما برعايتك فى حمى مجدك وظل جدك . وها أنا ذا أتوكأ على عصاى . متكئا لظاى . أسير حثيثاً — رغم شيخوختى ووهن قواى — إثر أبيهما — إلى منتهاى ومثواى . ومقرّ أخراى » .

البيت المبارك :

تزوج محمد . ووهبه الله إبراهيم وطوسن وإسماعيل . وبنتين كريمتين . كانوا له قرّة عين . وقد فتح الله له أبواب الرزق . وأسبغ عليه من نعمه . فتمتع بعيشة عائلية هادئة راضية فى بيت مبارك من « بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيهـــا اسمه يسبح له فيها بالغدوّ والأصال . رجال لا تلهيهم تجارة

ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسنَ ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » (٢٤ - ٣٦) .

مناجاة البطولة :

سمع محمد قرع الطبول . ووقع سنابك الخيول . إيذانا لحملة مصر . فهرع إليها متطوعاً . غير هياب ولا جزع . ولم يجد بدّا من أن يدعم فتوّة طشيوز ورجولة بروستة ببطولة النيل .

ناجى نفسه . وقد رأى أن يغترب عن أرض الآباء . ويترك الزوج والأبناء . فتناوبته عوامل التشاؤم والتفاؤل . والتدبّر والتساؤل . متحيراً لا متطيراً :

« تُرى . هل أفوز فى رحلتى ؟ أم أموت فى غربتى ؟ وهل أضمن للعيال أوبتى بعد طول غيبتى ؟ أم آمن توطيد سدّتى وتوطين عزتى فى غير بلدتى ؟ وهل أحقق سعادتى وعظمتى . على ما أنجلى فى رؤيا والدتى . وما تنبأ به الشيخ الصديق فى طفولتى . وأدعمه فى فتوّتى . رأى لى نجما يحوم فى الجنوب وها أنا ذا مقلع إلى الجنوب . ولكن ما انحراف النجم بين الشروق والغروب . وتأرجحه إلى الشمال . وتركزه فى سمت الجنوب . وما الكؤوس حولى تدور . يشربها البعض مرّاً . ويرتشفها البعض رحيقاً . وما الرؤوس تغور . وما النفوس تبور ؟ » .

« أطلقنى الشيخ الصديق وراء ميداس . ثم وراء الإسكندر . ثم وراء قيصر . وها هو ذا يطلقنى الآن إزاء نابليون إثر نجمى . فما يكون حظى من حظهم ؟ وما يكون نصيبى من نصيبهم ؟ وما يكون مصيرى من مصيرهم ؟ . سبحان ربى . عالم غيبى » .

مصر الحديثة

حكم عقيم فى عهد سقيم :

تأرجحت البلاد بعد فقد عاهلها صلاح الدين بن أيوب بين الرخاء والعناء فى عهد خلفائه . إلى أن منيت بشرذمتين من المماليك - برجيين وبحريين - ثانيتهما شر من الأولى . أفسدت مرافق البلاد : أفقرت أرضها . وأقفرت مواردها. وأرهبت أهلها . وما كادت البلاد تسترد القليل من رقيها فى عهد علىّ الكبير - حتى نكست فى عقيم حكم المماليك ووخيم ظلمهم .

ثمّ مات أبو الذهب - عميدهم . فتنازع الرئاسة ثلاثة منهم . رست على إثنين - « إبراهيم ومراد - تناوبا السلطتين الادارية والحربية - مشيخة البلد وإمارة الحج . » . وقد تدهورت الأمة أسوأ تدهور . وغشتها ظلمات الجهالة . فلم تر من النور إلا بصيصاً . ثم أتاها العثمانيون بغيومهم المتلبدة . فانقطع عنها البصيص . وغاصت فى بحر لجىّ من الظلمات .

قضت كياسة الحكم العثمانى بحصر السلطة فى ثلاث هيئات متنافسات متضاغنات متطاحنات متشاحنات .

الوالى وكان الممثل الأعلى للسلطان . يجمع الجزية بالطرق التعسفية والوسائل القهرية . يعاونه ملتزمون يرهقون الشعب فى جباية المال . للحاكم والمماليك . وللجيش . ولأنفسهم .

والديوان وكان هيئة عسكرية مؤلفة من ضباط الجيش - انكشاريين وألبانيين . وكانت لهم سلطة منافسة الوالى - وإذا شحت مواردهم تحولوا إلى الأمة يوسعونها سلبا ونهبا .

والمماليك وكانوا الهيئة الحاكمة فى الأقاليم . حافظ السلطان على كيانهم بعد أن دحر كبيرهم . فكانوا أداة توازن بين الوالى والديوان — لنفوذهم وسلطانهم . وكانوا أداة حكم فى البلاد — لخبرتهم الإستبدادية وأساليبهم الإرهابية .

سادت تلك الهيئات الثلاث الجبارة . فرسخت الأمة فى الذلة . ورزحت فى العلة — عسف وحيف . ورسف وسيف . ضرائب فادحة . وسخرة قادحة . وجهل وخمول . وتعرض للسطو ولوطىء الخيول . آفات وجوع . وفاقات وخضوع . أمة يائسة . شقية بائسة . لم ينج فيها من بأس الحكام إلا بعض العلماء — كانوا بمثابه الذابين عن حقها . والمتكلمين بلسانهـــا . يستغلون الوقف بما يدرّ عليهم من خيرات . ويستغلون الأمة بما يراؤونها به من زهد وورع وصلوات . وكان العثمانيون من ناحية . والمماليك من ناحية أخرى . يتوددون إليهم ويستخدمونهم فى تنفيذ مآربهم وتحقيق أغراضهم .

ثم جاء نابليون الفرنسى لينشىء دولة فى الشرق قوية . فوجد هيئتين متناوئتين تتحفزان لمناوءته: الوالى ويظاهره الجيش التركى . وأمراء المماليك ويمالئهم بعض الأعوان والأتباع من الأهلين . فخطب ودّ الشعب المصرىّ بعد أن هزم أولئك وهؤلاء . وجعل منه عنصراً طيباً يستند إليه فى الحكم .

حكم سليم فى عهد عقيم :

ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديثة أصبح للعنصر المصرىّ الصميم حقّ الاشتراك فى الحكم . أو على الأقل صفة الإشتراك فيه .

فقد أنشأ الفرنسيون ديواناً وطنياً عاما من العناصر الوطنية يرأسه شيخ مصرىّ . للنظر فى شئون البلاد تحت إشراف وبإرشاد الحاكم العسكرىّ الفرنسى . وأنشأوا فى الأقاليم دواوين وطنية على غرار ديوان القاهرة .

كان للفرنسيين غرماء كثيرون يناصبونهم العداء ـ داخل البلاد وخارجها .
وكان فلول المماليك لا يألون جهداً فى تحريض الوطنيين ـ من حين إلى حين — وبمناسبة وبغير مناسبة — يحضونهم على الثورة . ويمنونهم بالخير العميم — إذا ما طرحوا بالتضامن معهم ومع الأتراك وبمساعدة الإنجليز — نير الفرنسيس الكافرين .

تحرّك الوطنيون مرّتين . وفى المرّتين أصيبوا بشرّ الهزائم . فأزهقت الأرواح . وخرّبت الديار . وأحرقت الأمصار . وأنزل الفرنسيون سخطهم على الشعب البائس . وسحبوا منه الكثير من الميزات . وقد تخلخلت الثقة . وثار سوء التفاهم . فغشى الطرفين روح الضغينة والبغضاء . والاستخوان والعداء . ومازال الشعب يتعلق بأذيال الآمال التى ماقتىء المماليك يلوحون بها فى الآفاق . حتى هزم الحلفاء الفرنسيين . واضطروهم كما اضطرتهم ظروفهم الدولية أن ينسحبوا إلى وطنهم قافلين .

تهافتت الأمة المصرية على تلكم الأذيال وتعلقت بها . فنكثها السادة الأتراك والسادة المماليك وجرّوا بها أرضاً . فتمزقت الأيدى . بتمزق الأذيال . وتمرّغت الأمة فى أقذر الأوحال .

* * *

هزيمة الهزائم :

أراح نابليون جيشه على ضفاف المنزلة بعد انسحابه من بلاد الشام بحملته . وإذا بحاكم الإسكندرية الفرنسىّ يشعره بأن قوة تركية استقرت من زمن غير قريب بأرض أبى قير . واحتلت مواقعها . وكان قوامها ثمانية عشر ألف مقاتل برأس محمد على إحدى فرقها الألبانية .

زحف نابليون ومعه من الرجال عشرة آلف مقاتل وهاجم الأتراك وأخرجهم من معاقلهم . ودحرهم إلى البحر وأسر قائدهم . وكانت هزيمتهم من شرّ الهزائم . إذ فقدوا خمسة عشر ألف بين قتيل وجريح وأسير . وبعد شهر واحد من الهزيمة اضطر نابليون أن يرحل إلى بلاده . تاركا لغيره قيادة جيشه .

* * *

وما أصدق ما رواه « الحكيم » بصف شخصية محمد على المجيده فى تلك الهزيمة العصيبة . قال : « كان ليون المخلص الوفىّ قد تنبأ بهزيمة الأتراك فى مواجهة الجيش الفرنسى . وأكدها لمحمد قبيل إبحاره إلى مصر مع الحملة . إذ رأى بعينيه نظم الجيش العثمانى العتيقة وحالة عدده البائرة وأسلحته القديمة . كما علم يقينا ما بلغته الجيوش الفرنسية من تقدم ورقىّ مزودة بأسلحة حديثة ونظم قويمة . وما تحلى به نابليون من جبلاّت نفسية عتيدة وصفات عسكرية مجيدة . ولطالما حذّر ليون محمداً من التورط فى المواقف الخطيرة والمواقع المشكوك فيها . وأوصاه بالمحافظة على نفسه وعدم التعرّض لخطر أو هلاك لا يعود عليه بنفع أو فخار . ونصحه بألا يخوض غمار الحديد والنار . إلا لما فيه العظمة والمجد وأكاليل الغار » .

« ولقد أقنع محمد نفسه قبيل حضوره إلى ضفاف النيل أن رحلته إليها لأرفع من أن يضحى بحياته ومستقبل بيته لدولة عتيقة محتضرة . ووضع نصب عينيه إنشاء دولة حديثة فتية متحضرة . كما وضع نصب جانحية التريث فى المواقف الرهيبة والمراكز العصيبة . وانتهاز خير الفرص وأجلها فى العمل المجدىّ والسعى الجدّى لتأسيس تلك الدولة الزاهية . على غرار الدولة التى شرع الفرنسيون فى تشييدها . ولكن من غير البيئة الحاكمة والقوات

العسكرية المحتلة . ومن غير فئات الأتراك والمماليك والجراكسية العائيه في البلاد فساداً .

بلغتنى الهزيمة . وأسررت إلى ليون مخاوفى . فطمأنى إلى أن محمداً لأقدر من غيره على تفادى الأذى حتى فى ميادين الوغى . لما عهد فيه من شجاعة وثبات . وعرف عنه من حيلة ودهاء . وما لبثنا أن وصلتنا أخبار سلامته . فكان اليوم من أسعد أيام حياتى .



« وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب »



فازرع صوابا بالحزم والحيطة :

وما أن رحل نابليون حتى انهزم جيشه الذى تخلف عنه . إذ شرعت القوات الإنجليزية بمعونة الجيش العثمانى تناوئه . وقد استمرت الحرب ثلاث سنين متوالية فى ميادين كثيرة خرج منها الجيش الفرنسى مغلوبا على أمره . وفى فجر اليوم الخامس من الشهر العاشر من السنة الحادية وثمانمائة وألف أقلع الفرنسيس نهائياً عن أرض مصر عائدين إلى بلادهم .

اضطر الإنجليز — بضغط العوامل الدولية — إلى الرحيل فى إثر الجيش الفرنسى وقد اطمأنوا فى مصر لضعف الحكام الأتراك وتخاذلهم . ولتنازع الأمراء المماليك وتنافسهم وسوء حكمهم . ولما منيت به البلاد من ضيق وفقر وبلاء . ولما عهد فى المصريين من جهل وخمول وشقاء .

إطمأن الإنجليز إلى أنه لن تقوم فى مصر قائمة لهيئة حاكمة قديرة رشيدة تهدّد لهم إلى الشرق سبيلهم . وتقوض مكانتهم . ولكن انسحابهم لم ينسهم الحصول من الباب العالى على امتيازات تضمن لهم العود عند سنوح الفرص أو متى ساقت الأقدار لمصر بمن يناصرها . وينهض بها إلى استقلالها .

رحل الفرنسيس والانجليز . فخلى الميدان ثانية لسادتنا المماليك بفريقيهما — ألفيين وبرديسيين . وكان الأتراك ضغثا على إبالة . وكان الشعب المصرى المغلوب على أمره قد أعدم تحت سلطانهم . وأرغم تحت طغيانهم . ولم يتألق

بين ظهرانيه ـ من أجيال مضت ـ إسم مصرى . حتى أتاه محمد على . فحرّره واندمج فيه . وكان خير من يدمل جرحه ويشفيه . وكان عن حق وجدارة ووفاء المصرى الأبرّ . لساناً وقلباً وروحا : للصلاح نوحا . وللفلاح جنوحا والإصلاح منوحا .

وفى المجال الخطير الذى خاض محمد غماره وانفسح له ليدرّب فيه حيلته . ويدعم قوّته ومكانته . ويجلى عبقريته وحكمته . رأى أن يسير سفينته بمعونة هيئتين لن يصل إلى تنفيذ مبتغاه وتحقيق متمناه إلا بهما . أولاهما : فرقته الألبانية التى حاربت معه فى كثير من المواقع . وثانيتهما : الأمة التى أولته حبهـــا إذ أولاها إخلاصه ووفاءه . فأسند إلى الأولى مجاديف السفينة . وإلى الثانية دفتها . وقال : « اركبو فيها باسم الله مجريهـا ومـرساها إن ربى لغفور رحيم ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال » (١١ — ٤٢) حتى أوصل امته إلى برها سالمة . وقد تحاشى هيئتين أخريين متناوئتين ـ ورغم اضمحلالهما ما زالتا جبارتين ـ « حكام الأتراك وأمراء المماليك » . فكان طورا يجامل هذه ويحامل تلك . وطوراً يحامل هذه ويجامل تلك . وكان بدهائه وحسن حيلته يضرب الواحدة بالأخرى . حتى فاز على الإثنتين .

أمن محمد على نفسه . واطمأن لمركزه . واستأمن القوم حيث اندمج فيهم . فأصبح منهم . وقد نادوا به والياً . بعد أن تدرج فى المجالين السياسى والإدارى . تدرّجه فى المجالين الإقتصادى والعسكرى . خطوة بعد خطوة إلى أن استتب له الأمر . وقد علم أن قوة الحاكم مستمدة من روح الشعب . وأن مصلحة الحاكم مرتبطة بمصلحة الشعب . استعمل الحكمة والدهاء طوراً . واستخدم الشدة والجفاء طوراً . إلى أن تخلص من العناصر الفاسدة الخطرة — أوكاد . وانتهز الفرص . وأخذ بالحيطة والحذر .

وتدبّر عن صواب . فأصاب عن حق . وظفر عن علم ، وكأنه فى تصرفاته قد اتبع نصح طاهر الحسين :

ركوبك الهول ما لم تلق فرصة   جهل ورأيك بالتغرير تغرير
فازرع صوابا بالحزم والحيطة   فلن يندم لأهل الحزم تدبير
وإن ظفرت مصيباً أو هلكت به   فأنت عند ذوى الألباب معذور ،

خلع ومبايعة :

قهر محمد أعداءه ، وهو مازال يشق سبيله خلال المكايد والفتن . حتى فاز بالولاية . خلعها عليه العلماء والأعيان عن الأمة . وألبسوه الكرك والقفطان . ونادوا به حاكما . غير راضين عنه بديلا . وما زال خورشد الجبار رابضاً فى قلعته . رافضاً النزول عن كرسى الولاية - ولايته . بأمر الفلاحين عبدته . . .

لبس عزيز مصر الشارة بعد الشارة ، ونثر الذهب بين الناس . ثم صحب العلماء والأعيان — زعماء الأمة — إلى خورشد الحاكم العتيد . والوالى العنيد . للنطق بخلعه وإقصائه ، وكأنى بمحمد يصيح فى وجهه : « لقد اتبعت سياسة خرقاء . ووسائل حكم هوجاء . وتماديت فى غىّ أسلافك ، فأوغرت صدور رعيتك . وغاليت فى فرض الضرائب الفادحة . وأثرت الأحقاد فى القلوب . وتماديت فى التغاضى عن اعتداء رجالك على حرية القوم . وكأنك قد تغاضيت أيضاً عن إغارة حاشيتك وتابعيك ومناصريك على أموال الناس ومتاجرهم وبيوتهم ومزارعهم . وقد استنكرتم أغراضهم ، واستبحتم أعراضهم ، وافقرتم بل أجعتم أفرادهم .

ولطالما ألفت الأعيان نظرك إلى ما يعانى المصريون من بؤس وشقاء . ويتحملون من عسر وعناء ، فأقصيت وسطاءهم . وطردت نجباءهم . وأذللت

كرماءهم ونجداءهم . وسميتهم بالسوقة وزعانف الرعاع والفلاحين القذرين . فما كان منهم إلا أن استنجدوا بالخليفة فأنجدهم . ورأى أن يولى عليهم من يصلح أحـــوالهم . ويضمن أموالهم . وينظم أمورهم . ويطمئن قلوبهم . يحقق أغراضهم . ويصون أعراضهم . ويضاعف أرزاقهم . وقد آليت على نفسى أن أكون أنا هذا الرجل . أعيش بين أظهرهم . فردا منهم . أحقق أمانيهم. وأشاركهم سراءهم وضراءهم . وأضحى بحياتى وحياة أبنائى وذوى قرباى فى سبيل رفاهيتهم وسؤددهم ومجدهم . وقد قطعت على نفسى عهد صدق ويمين حق أن أجعل من هذه البلاد بلادى روضة غناء . وجنة فيحاء . تنمو فيها أفنان الأدب والعلوم والدين والفنون . وتزدهر . تتفتح زهورها يانعة زاهية. وتنتج ثمارها ناضجة سائغة الأكل سابغة . بعد أن استأصل من خصيب أرضها جذور الفساد التى غرستموها أنت ورجالك وأسلافك ورجال أسلافك . فأنبتم فى صعيدها الطيب خبيث زرعكم . قتاداً يمزق الأجساد . وحنظلا يفتت الأكباد ».

وكأنى بخورشد يتفرس الوجوه صارخا. « خستم أيها الثائرون المغرورون. ولسوف أؤدبكم أنتم وهذا الضابط الغر لتخطيكم عرينى دون اذنى. وتهجمكم منيع حصنى دون أمرى . وقد تحديتم يمينى أن أعمل السيوف فى رقابكم . وألحق الحتوف فى أعقابكم » .

وكأنى بمحمد يجيبه فى تؤدة وهدوء واباء وشمم . « لاتتعب سيوفك وحاملى سيوفك . لقد تألبت عليك الأمة ـ وكنت لاتعمل لها حسابا ـ بعد أن أرهبتها وأفقرتها وأجعتها وأذللتها ـ حتى عيل صبرها . ونفد جلدها . وهاأناذا بمعونة علمائها ومشورة جهابذتها . أكافح من هذه الساعة الرهيبة والظروف العصيبة مطارق الظلم والارهاب وأقاوم معاول الهدم والخراب .

ما وجدت إلى ذلك سبيلا . وسيأتيك قريبا من يبشرك بما يرضيك . ومن يغنيك عما يؤذيك . ويوفر عليك ما لايجديك » .

وما كاد محمد يتم كلامه . حتى دخل مبعوث السلطان يقرئ الجميع السلام . ويتلو على خورشد أمر خلعه وترحيله . وإذ سمعه كاد الذهول أن يقضى عليه غما وأسى وحقدا وغيظا .

ثم بايع وكلاء الأمة محمداً بن ابراهيم بن على الولاية جزلين . وحيوه فرحين . وهنأوه مستبشرين . على أنه ابن مصر البار ـ عزيزها ومحررها وحاميها .

° ° °

لاتقطعن ذنب الأفعى وترسلها إن كنت شهما فاتبع رأسها الذنبا

ناصر الانجليز البرديسىّ . واستصحبوا إلى بلادهم الألفىّ . أكرموا وفادته . وأغدقوه بالعطايا . وهم يمنونه بالسيطرة على مصر وتولى زمام حكمها .

ولكنهم ما لبثوا أن أصبحوا فى شغل لمواجهة الفرنسيس فى الميادين الأوروبية . فتنفس محمد على الصعداء . حيث تخلص منهم. وتربص لأفعيين ما زالتا تنفثان السموم . وتثيران الهموم . وكأنهما أصبحتا بمثابة ذنبين وجب أن يتبعا رأسيهما . فتعقبهما حتى أقاصى الصعيد لسحقهما .

ولكن ـ ما لبث أن بلغه أمر نزول حملة إنجليزية بالاسكندرية . كانت بلا شك قد أتت بدعوة سابقة من الألفى لمعاونته على استرجاع سطوة طائفته والقضاء على سلطان محمد والحدّ من نفوذ الفرنسيين مؤيديه ومناصريه .

أصيبت طلائع الإنجليز على غرة منهم بشرّ الهزائم . وأفرادها آمنون

مطمئنون . يتنزهون فى أحياء المدينة ويتفيئون فى ظلال أشجارها . وقد جهلوا ما خبأه لهم القدر من حظ مضني . ومصير مرير .

وإذ بلغت محمداً كارثتهم تباطأ فى الصعيد مترددا . ثم لم يجد بدأ من مواجهتهم قبل أن يأتيهم مدد يثبت أقدامهم . ويدعم مراكزهم . فعاد إلى القاهرة يهيىء أموره لمقاومتهم . ويدرب جيوشه على النظم الحديثة . والأساليب السليمة . وما فتئ أن هاجمهم وتغلب عليهم ودحرهم ، فأقلعوا إلى غير رجعة وقد يئسوا من تحرك المماليك وفاءً لعهودهم .

ولأول مرة آثر المماليك الخلود إلى السكينة . ويبدو لأول وهلة أنهم بدوا المصلحة القومية على المنفعة الشخصية . ولكن الواقع أن سكينتهم هذه لم تكن بريئة ولوجه الله . بل كانت فى مقابل امتيازات منحها لهم العزيز قبيل انسحابه من الصعيد وذهابه لمواجهة الإنجليز .

إنتصر العزيز على الإنجليز فى أرهب المواقف . وأصبح حقا بطل مصر . وحارس ذمارها وحاميها . ومالت إليه قلوب المصريين ميلا فطرياً بريئاً ، وأقبلوا على الضرائب يدفعونها عن طيب خاطر ورضاء نفس . كى يشرع فى إصلاحاته وإدارة شئون بلادهم وفق مصالحهم . ويؤسس حكومة قومية قوية تنهض بأعباء الحكم . وتذود عن حرمتهم وتقهر أعداءهم ـ ســـواء أكانوا خارج أرضهم . أم فى عقر ديارهم .

تخلص من الإنجليز . فوجب عليه أن ينبرى إلى المماليك . ينازلهم جهاراً أو خفاء . ليتخلص نهائيا منهم . فيتفرغ لتنظيم أمور بلاده — آمنا مطمئناً .

وما أفجع ما استسخر من وجدان . وما أوجع ما استشعر من أشجان واستحذر من خذلان . يوم لم يجد بدأ من إفناء المماليك للإنتهاء منهم .

بعد أن عجز عن تأمين البلاد من شرهم بهزمهم أو إقصائهم . وهم ما زالوا يعيشون فيهـــا فسادا بتضامن السادة الأتراك وبعض الألبانيين وكانوا قد بيتوا له المكايد إذا ما أقلع إلى البلاد العربية لإخضاع الوهابيين الذين بلغ بهم اليأس أن هددوا الشام . ولنصرة جيوش السلطان الذى بلغ به اليأس أن استنجد بمحمد .

من أحكم حكم محمد التريث وانتهاز الفرص . وتحين المناسبات . فأرجأ الحملة . ريثما يدبر الحيلة . وتقدم إلى السادة المماليك يتودد إليهم . ويظهر لهم رضاه عنهم . وعطفه عليهم . وقد أقطع كبيرهم الجيزة والفيوم . ومدهم بالمنح والعطايا . وأغدقهم بالقصور والرياض الغناء . وأسند إليهم الكثير من مرافق البلاد .

إستمالهم . فاطمأنوا إليه . وهم مازالوا متآمرين عليه .



« إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها »

* * *

ضربة حاسمة في مناسبة باسمة .

في مساء يوم الخميس الثامن والعشرين من الشهر الثاني للسنة الحادية عشرة وثمانمائة وألف قفل « الحكيم » إلى بيته متأخرا . بعد أن أجهد نفسه في معالجة مرضاه . وكان أخوه يوسف في انتظاره . شاحب البشرة . منقلب السحنة . يقيس الغرفة بخطوات وئيدة . والسبحة في يديه خلف ظهره وهو لم يجلس لحظة على مقعد . ولم يقرفص برهة على وسادة .

رأى الحكيم أخاه مضطربا فتراجع مذعورا . ولكن يوسف لم يمهله وأقبل عليه وبادره بصوت خافت متهدج . « ما أخبارك يا يحيى . هل من جديد ؟ هل حظيت برؤيه العزيز اليوم؟ وكيف أحواله ؟ وماذا كانت أقواله ؟ ألم يسرّ لك شيئاً ؟ ألم يفصح لك عن شيء ؟ ألم تتلمس سمات الكآبة على وجهه ونبرات الحيرة في صوته ؟ ألم تستكشف نزعات التفكير في حركاته وسكناته ؟ ألم تستشف لمحات الحذر أو الشرود في نظراته ؟ » .

« ألم يصادفك طيلة نهارك بعض المماليك أو أتباعهم أو زعانفهم ؟ ألم يخاطبك أحد في صددهم أو في صدد أحوالهم ومصائرهم ؟ وهل أنت مطمئن ومتفائل لشيء ؟ أم أنت متخوف ومتشائم من شيء ؟ . . . » .

وما زال يوسف ينهال بالأسئلة حتى ضاق به أخوه وقاطعه : أرهقتني يا يوسف بأسئلة لا تنتهي ولا أفهم لها معنى ولا أعرف لها قصداً ولا داعيا — إلا أن يكون قد أصابك مس أضاع صوابك وأفقدك رشدك وأخبل عقلك » .

« العالم بخير . والعزيز هادىء مطمئن . ورجال معيته — كبيرهم وصغيرهم —

آمنون راضون . والقوم كلهم على أحسن حال . يجيئون ويذهبون . ويجولون في الأزقة والطرقات . والخيل والبغال والحمير تحمل أصحابهـــا إلى مساعى أرزاقهم وقضاء حاجاتهم . والأسواق مكتظة بالسلع مزدحمة بالباعة والمشترين . مطمئنين فرحين مستبشرين » .

أما السادة المماليك فقد رأيتهم ممتطين صهوات جيادهم العربية الجميلة تزينها الحلل الفضية والذهبية والأحجار الكريمة . ومازالت عماماتهم وأكمامهم الحريرية تتطاير فى الهواء . ومعاطفهم وجببهم الصوفية تزهو بالفراء . وما زالت أحزمتهم المرقشة تطوى فى ثناياها أسلحتهم المزركشة . ومازالت أحذيتهم تدوى ومهاميزها تضوى . وقد زاولت الخيلاءَ نفوسهم . وطاولت الجوزاءَ رؤوسهم . وارتسمت على جباههم دلائل النعيم والعز المقيم . تمايرت وجوههم . وتصاعرت خدودهم . وشعت شذرات الكبر والغرور من مقلهم . تغايدت أعناقهم . وتمايدت قاماتهم . وتمايست أعوادهم . وقد أرجحت الخيلاءُ أجسادهم ما تأرجحت أكفال خيولهم من تحتهم . فما بواعث اضطرابك ؟ وما دواعى اكتئابك ؟ » .

وإذ لم يجبه يوسف بشيء أغلق الأبواب والنوافذ وأسدل الستائر . وكان البرد قارساً . والريح زمهريراً . ثم أوقد المدفئة وأنار المصباح . وألقى الوسائد الناعمة على البساط الوثير . وامتد عليها . وأسند جبينه إلى كفه وأغرق فى تفكيره . فرقد يوسف ازاءه وأطرق متردداً بين عاملين خطيرين : هل يفرج عن كربة نفسه . فيقصّ على أخيه سراً هائلا يبهر صدره ويخيفه ويرعبه . أم يفرج عن كربة أخيه فيستمع إلى بواعث تفكيره . وأخيراً فضل الصمت على الكلام فسكت .

السرّ الرهيب .

سكت يوسف . فرفع الحكيم رأسه . وطلب إليه أن يجيبه على سؤاله . ويفصح عن سر انزعاجه .

قال يوسف ـ وقد شحبت بشرته . وشردت نظرته . وخرج صوته من أعماق صدره كأن نزعات الموت تتخلله . « خطر لى بعد ظهر اليوم أن أسير كعادتى عند سفح الجبل . تحت جدران القلعة . وكان شعاع الشمس دافئا والجو ـ رغم الشتاء ـ صحوا هادئا . تهاديت فى طريق أفكر فيما عساه أن يكون الأمر من حفلة الغد بتقليد طوسن الفتى قيادة الجيوش المصرية الذاهبة إلى البلاد العربية . وكان الطريق قفرا . ثم تلفت ظهرا . وإذا بشرذمة من الجند تطبق عليه وتطوّقه . فأسرعت الخطا ناجيا من موقف لم أتوقعه ولم أكن أظنه خطرا . هاربا من مأزق لم أكن أحسبه خطيراً . »

ولقد سمعت خلال منافذ الأسوار الشاهقة ضجة كأن أجهزة جهنمية تنصب فى كل صوب . وتزايد ارتباكى وخشيت المرور إلى « باب العزب » ثم هددنى جندىّ كامل العدّة بويلات الأمور إن لم أقلع وأسرع العبور . فلم أجد بدا من الفرار . وعدوت وكدت أضل السبيل وأنا فى أشد حالات الحيرة والفزع . وإذا ما أسدل الليل ظلمته تلبدّت الغيوم فأصقعنى الهواء بنفحته ولفحته . وضعضعنى البرد بعضته وصفعته . ثم وهنت قواى . وكلت رجلاى . فانزويت خلف صخرة صلدة تثير صدى الأصوات . وارتميت على الأرض الندّية استعيد نشاطى استعدادا لاستئناف سبيل نجاتى . ثم سمعت طرق أقدام ثقيلة ماشككت من انتظام ضرباتها أنها خطوات ضابطين عظيمين . ورغم البرد القارس فقد تصبب منى العرق . إذ تمافم على قلبى الفرق .

وكتمت أنفاسى خشية أن يسمعا زفراتها . فيكشفا موضع انزوائى . ويكون مصيرى المحتوم فنائى » .

ثم سمعت أحد الرجلين يخاطب رفيقه بلغة تركية لهجتها ألبانية « لامفرّ من ذلك ياصديق — فهى إرادته . وهو كما تعلم — إذا أراد فعل . ولامردّ لإرادته . وفى هـذا الممرّ الصخرىّ . لا مفر لهم من الحكم المحتوم والقضاء المبروم . هنا فى هـذا الممر الصخرىّ . . . » ثم تباعد الصوت — صوت الكلام . وصوت الأقدام — واختفى . . . » .

« إطمأننت على نفسى . فهرولت كالفريسة الناجية من مخالب سباعها . أزحف على يدىّ وركبتىّ . إلى أن بلغت منفذ خلاصى . وقد تفككت عمامتى واتسخت . وتمزّقت ثيابى وتهلهلت . وتجرّحت ركبتاى . وتقرّحت يداى . وتبرّحت قواى . . . . » .

« وإنى كلما ذكرت مأساة يومى . تمثلت مأساة غيرى فى غدى . فانقبض صدرى . وانتفض قلبى . . . . » .

سكت يوسف برهة . ثم استأنف الحديث قال : « إن العزيز لمقدم على مكيدة خطيرة — قد يفوز بها . وقد يتعثر فيها . فإذا فاز — كان بها . وإذا تعثر وفشل — ضاع . وضعنا » .

« إذا تعثر فلا شك فى منازلة تهلع منها القلوب . وتشقّ فيها الجيوب . وتدقّ فيها الترائب . خلال الأنقاض والخرائب . منازلة تقشعر منها الأبدان وتصطك منها المفاصل والأسنان . وتشيب من أهوالها نواصى الولدان . منازلة رهيبة تخضب دماؤها — لا ذلك الممرّ الصخرىّ فحسب . بل تسيل أنهرا إلى أقاصى البلدان » .

« لم لايحاربهم جهارا . وقد أصبحوا شر ذمة متخاذلة ضئيلة فلّ حديدها .

وذلّ عميدها . وقلّ عديدها . وعلّ مديدها ؟ » .

« لمَ لا يقاتلهم كما يقضى الشرع – وله من رجاله أبطال صناديد يزممون السفر إلى البيده – لا يرهبون الوغى فى المهامه الجرداء . حتى أقاصى نجد وصنعاء . وقد ورد فى الكتاب ما يبرّر مقاتلتهم – « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » (٢ – ١٩٣) .

« ولكن سبق السيف العزل . ولا رادع لمن إذا قال فعل » .

فبادره يحي قائلا : « لقد ضاق مجال الأمل . وضاع منال الحيل . بتفاقم العلل . وتناقم الغلل . والحق أن البلاد قد ضجت من هؤلاء القوم المكرة الخونة . وقد بلغت أعمالهم حدّ السفه والابتذال . حتى ضجّ منهم الموتى فى قبورهم . ماضج الأحياء فى دورهم – وهم ما نصحناهم لا ينتصحون . وما أرضخناهم لا يرتضخون . فأصبحوا لا يصلحون إلا لشيء واحد – « حصدهم فى لحظة واحدة . بطلقة واحدة . فيستريحون ويريحون » .

« هزّ يوسف رأسه وقال : – « دعنا يا يحي من الحيلة والغرّة اللتين لا أقرهما . وقل لى ما العاقبة لو لم أكن أنا يوسف الكاشف المختبىء والمستمع إلا أنها المحنة الناكبة – ناكبة الدور والأحياء . والإحنة الساكبة – ساكبة الدموع والدماء . وما أدرانى أن غيرى لم يكن متسترا ومتنصتا . أو أن ذينك المتحدثين لم يكونا من أولئك الخونة المكرة . . . والآن ما الحيلة يا يحي ؟

فأجابه يحي : « لا حيلة بعد اليوم . وما الحيلة إلا بيد الله . « وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » (٣ – ٤٧) . « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » (٦ – ٥٩) » .

– « هذا يا يحي كلام جميل . من كتاب جليل . أنزل على نبيّ كريم .

ويقال فى مجال حكيم لمثال قويم . لا لمال وخيم هديم . . وهلا يجدر بنا أن نحتاط لما عساه أن يفاجئنا به القدر من محن لا يعلم إلا الله مداها ؟ »

— « دع الأمور يا يوسف تجرى بأعنتها . واترك الأسرار تنضج فى أجنتها — متى حلّ طلقها انطلقت . وإذا ما تعجل الطلق تمخضت.وسواء تمخضت الأقدار فولدت فارا أم أنجبت حمارا . فما الذنب ذنبنا — بل الذنب ذنب الغدار الذى يفشى الأسرار . وأنت لست بغدار . أنت الوحيد الذى أفلت إلى مسالك الأحجار . ومناطق الأخطار . فالرقابة عليها محكمة سديدة . والحراسة فيها كاملة شديدة . وفيها يجب أن تتم المأساة المريرة . وعلى مذبحها يجب أن تقدم تلك الزمرة المكيرة . فتفدى البلاد من شرّ عللها . وتنجو من ضرّ محنتها » .

« إن أعمال هؤلاء المماليك أصبحت فى الواقع لاتطاق . وقد بغوا فى كذبهم ونفاقهم وريائهم . وطغوا فى استهتارهم واستئثارهم واستهزائهم . « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون (٢ — ١٤)» يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم » (٤٨ — ١١) « يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون (٩ — ٨) فالكذب طبيعتهم . والنميمة فطرتهم . والتذبذب خلقهم . والظلم شيمتهم : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقنّ ولنكوننّ من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » (٩ — ٧٧)

« ولأشد ماتخشاه منهم فسادهم وفتنهم. والفتنة ديدنهم . والفساد دينهم — « والفتنة أشد من القتل » (٢ — ١٩٢) « ولو اتبع الحقّ أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهنّ بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم

معرضون » (٢٣ ـ ٧١) . « والله لا يحب المفسدين »

ولقد أنزلوا الشعب إلى أحطّ دركات الذلة والفقر والعلة . استقلوا أرزاقه واستحلوا أقواته . اغتصبوا أمواله ودنسوا حلاله . وهم لم يتحسسوا خسيسة إلا اقترفوها . ولم يتلمسوا خديعة إلا احترفوها . وهم لم يتجسسوا كريهة إلا ارتكبوها ولم يأنسوا لمحرمة إلا استباحوها . وقد « بدّلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار » (١٤ ـ ٢٨) قتلوا نفوسا بغير نفوس وأشبعوا الأرض فسادا . فأصبح التخلص منهم رشادا . بل أصبح قتلهم سدادا . « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا . ((٥ ـ ٣٢) فكأن من قتل نفسا بنفس أو لفساد فى الأرض فكأنما أحيا الناس جميعا . « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا (٥ ـ ٣٣) .

أولم يصدق فيهم وعيد سيدنا علىّ لبعض عماله ممن خذلوه . « عصيت إمامتك . وأخزيت أمانتك . وجرّدت الأرض فأخذت ماتحت قدميك . وأكلت ما تحت يديك . وكأنك لم تكن على بينة من ربك . وكأنك إنما كنت تكيد هذة الأمة عن دنياهم . وتنوى غرّتهم فى فيئهم . فلما أمكنتك الشدة فى خيانتهم . أسرعت الكرة وعاجلت الوثبة . واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم اختطاف الذئب الأزلّ دامية المعزى الكسيرة . فحملته رحيب الصدر بحمله . غير متأثم من أخذه . كأنك ـ لا أبا لغيرك ـ حدرت إلى أهلك تراثا من أبيك وأمك . فسبحان الله . أما تؤمن بالمعاد . أوما تخاف نقاش الحساب . كيف تسيغ شرابا وطعاما وأنت تعلم أنك تأكل حراما وتشرب حراما . وتبتاع الأماء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين الذين

أفاء الله عليهم هذه الأموال . وأحرز بهم هذه البلاد ؟ فاتق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم . فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرنّ إلى الله فيك . ولأضربنك بسيفي الذي ماضربت به أحدا إلا دخل النار » .

سكت الحكيم قليلا ثم استأنف الكلام . قال « أقرأ على العزيز تاريخ الدول الأوربية الحديث فتثور فيه الغيرة . ويتساءل مكتئبا ـ لم لا ترقى مصر في ميدان المدنية حتى تبلغ مراتب تلك الدول ؟ .. ولكن كيف السبيل إلى ذلك وشئون البلاد تتدهور إلى أردأ مآل . وأسوء حال . والأمة تتقهقر في الجهل والذلة والخمول والعلة . وهناك فئات جرثومية فتاكة يجب استئصالها اليوم ـ قبل الغد » .

« تخلص العزيز من الأتراك والإنجليز وبعض زعانفهم وأقصاهم . فإما أتبعهم بفلول الجراكسة والألبانيين المستبدين وبقايا السادة المماليك المفسدين فنفاهم ـ وإذا ما نفاهم ـ مافتىء يخشى أذاهم . وإما قسا عليهم فأفناهم ـ وإذا ما أفناهم ـ لم يخش بعد أذاهم » .

« والحق ألا سبيل للأخذ بيد الأمة المصرية إلى مصافّ الأمم المفلحة مهما ضربنا على أيدي العابثين ومهما كتمنا أنفاس المفسدين ـ ماداموا أحياء معمرين ـ اللهم إلا إذا كسرت أشداقهم . وضربت أعناقهم . ودكت عروشهم . ودقت رؤوسهم . ولقد سهّلت لذلك الطريقة . وأحكمت الوسيلة . بحيث لا تتعدى العملية بضع ثوان . مابالك يا يوسف تجزع من قطع دابر ألف متمرّد في سبيل إنقاذ شعب بأكمله . طالما عملوا على قطع دابره » .

« ثم هناك فتنة الوهابيين وقد عبثوا بالأراضي المقدسة وعاثوا فيها فسادا . حتى أصبح خصيبها صعيدا جرزا لا ينبت إلا حنظلا وقتادا . وخرّبت أضرحة الأولياء حتى كادت تصبح للذئاب والأفاعي مرادا . وقد بلغ بهم البأس أن

أزعجوا السلطان وأعجزوا جيوشه الضعيفة . وأصبحوا يهددون الشام وربما هددونا .

« يجب على العزيز أن يكرس جهوده لتنظيم حملة برية بحرية مجهزة بأصلح الأسلحة مزودة بأجود الذخائر . قوامها عشرة ألف مقاتل من الطراز الأول يدربهم على قواعد الحرب الحديثة . يعلمهم النظام . ويبث فيهم روح الشجاعه والتضحية والإقدام . يجب عليه أن يفرغ لتدبير وسائل نقل قواته ومددها وعُددها بحراً وبراً مما يستدعي إنشاء دور صناعة الأسلحة والسفن . وإصلاح المرافئ وتحسينها وتوسيعها .

« فإذا قاد العزيز جيوشه إلى البلاد العربية ـ ويجب أن يقودها بنفسه ـ لن يتيسر له أن يترك وراءه قوّة كفيلة بالمحافظة على مركزه مع ما علم سراً من استعداد المماليك وبعض الخونة من الأتراك والجراكسة والألبانيين . للقبض عليه والقضاء على سلطانه وعلى أنظمته ومشروعات إصلاحاته . فهو إن ذهب إلى الفتنه الوهابية بقوته تلك تألب عليه أعداؤه — ولا بد أن يتألبوا . وقد أصبحوا خنجراً يسيل دما فى ظهره . وإذا ما نفذ الخنجر من الظهر إلى الصدر . خضعت البلاد لسطوتهم . وأصبحت ميدانا رحيبا لجورهم وفجورهم . ورجعت الأمة إلى سابق عهدها بهم من إذلالها وإجاعتها وانتهاك حرماتها . . . .

وسيخوض العزيز غمار حرب ضروس . فى شاسع الفيافى ونائى القفار . فوجب عليه أن ينظم أموره الداخلية . ويسوى أحوالها . كى يضمن لمصر سلمها ورخاءها وأمنها . ثم يفرغ آمنا مطمئنا لشئونه الخارجية التى ولاشك سينفتح أمامه مجالها . من جراء تلك الحملة وعواقبها . ولما هو محتمل فى المستقبل القريب أو البعيد من احتكاك دولى عصيب . وارتباك سياسى مريب .

فإن لم يحتط لنفسه اليوم ويضرب الضربة الحاسمة التى ضربها السرطان لعنق الملجوم . لنال منه عدوه فى الخارج ما يناله منه عدوه فى الداخل . فيصاب بهزيمتين أخراهما شرّ من الأولى » .

وأما عواقب عملية الغد فلا تخشاها . فقد دبّر العزيز لها أمرها . وأخذ عنها حيطتها . نضرع إلى الله تعالى أن تختم المأساة على أحسن حال وأضمن مآل . لا يغشى لها سرّ ، ولا يغشاها ضرّ . ولا يعقبها شرّ » .

ختم الحكيم مقاله ، ومازال يوسف شاردا ، فبادره عاتبا ـ « والآن . . فى أى بحر لجىّ من التفكير العقيم والتدبير السقيم أراك غرقاً ؟

فأجابه يوسف : طمئنى يا يحى . وقد أزحت الكثير من وساوسى . وأرحت الكثير من هواجسى . وكأنى أتعزّى فى قول الشاعر العربى :

« دع الأيام تفعل ما تشـــاء   وطب نفساً إذا نزل البلاء

ولا تجزع لحادثة الليالى   فما لحوادث الدنيا بقاء »

ومع هـذا وذاك ، فإنى فى الواقع فرِق . وفى التفكير العقيم غرِق ، وقلبى من الأذى ينفطر ولا ينجبر ، ودمعى من الأسى ينفجر ولا ينحدر . . ولعلك تذكر يايحيى لمَ أفضل الآن ارتياد القفار الغبراء والصخور الصلداء . وعلى الرياض الغناء والجنات الفيحاء » .

فبادره الحكيم : « لقد أذكرتنى يا يوسف أمرا خطيرآ نسيته . والآن وعيته . يجب أن أدبر له حلا حاسماً . ومخرجاً باسماً . قبل ضياع الفرص . ووقوع الغصص . لا تخف واطمئن . وإن غداً لناظره قريب . نم على هذه الوسائد الوثيرة كما أنام ـ نوما هادئا مريحاً . بعد أن عدت من الصحارى بريحاً جريحاً ، أسعد الله ليلتك . وأسبغ عليك نومتك » .

فتـــاة مصر

حل سعيد :

استيقظ يوسف على آذان الفجر ولم يجد أخاه فارتعب . وهرع يبحث عنه من حجرة لأخرى . حتى عثر على كتاب منه . يوصيه بالخرص ويطمئنه فيه .

إطمأن يوسف فتزين وتعطر . واكتسى فاخر ثيابه . ولف على رأسه ثمين عمامته . وبعد أن تناول إفطاره جلس على تخت وثير . وقد أتاه الخادم بمنضدة وضع عليها قدح القهوة وقرين مصحفه . وأتاه بأرجيلته الذهبية يرتشف منها أنفاسه ارتشافه لقهوته . وهو يقلب صفحات كتابه . وكان فى الواقع يقلب أوجه التفكير . وكأن فى قلبه جمرة الكير . وقد ثارت مخاوفه على أخيه . ومن أخيه انتقلت إلى زليخة مربوبة أبيه .

أما الحكيم فقد قام ومازال يوسف غارقا فى نومه إثر ما تحمل من مجهود جسدى على سفح الجبل الحجرى . وما بذل من مجهود نفسى على بساط الحديث الأخوى . أنار الحكيم مصباحه وحمله وخرج متسللا . وفى ظلمة الليل متستراً . وأيقظ سائسه الذى أحضر له فرسه « جناح الريح » . فامتطاه وهرول إلى القلعة . وكان البرد قارسا . والهواء زمهريرا . وقد أصقع رذاذ الندى يديه . ولفح وجهه وأدمع عينيه . ومازالت ظلمة الليل معلقة فى الفضاء . مخيمة على الأحياء . ولم يكد يستكشف الطريق لتراكم السحاب . لولا أن استشعر « جناح الريح » سبيله فى كثيف الضباب . وإذا مابلغ « الحكيم » رتاج الحصن المنيع . سلم الحارس قياد فرسه . وذهب إلى مرابض

جنده . فأقصى الوهن السقيم . وأبقى النشط السليم . وأصبح المرابصون من خيرة الرجال الأشداء . لن يخطئوا المرمى — ولايتعدى عملهم حركة آلية محكمة . لاتستلزم مبارزة ولا تستدعي مقاتلة . بل تستوجب ثباتا وقوة وإقداما .

ثم انطلق يحيي على متن فرسه إلى قصر المملوك سليم فترجل . وأسرع الخطا في الردهة مضطربا . وكان الهواء شديداً قارسا . فاغرورقت عيناه وأحمرت وجنتاه وامتقعت شفتاه وصقعت يداه .

سمع سليم صوته ووقع حذائيه . فهرع إليه واحتضنه واستفسره الخطب . فأجابه يحيي وكأنه يغص في دموعه . « أمي مريضة وحالتها خطيرة . وقد أجهدت نفسي في علاجها طيلة ليلها . وعملي اليوم لايسمح لى بملازمتها . ولا أجد من أطمئن اليه . وأثق فيه . يعتني بها ويناولها أدويتها في مواعيدها . وأغذيتها في حدودها . فقصدتك — أنت الصديق الوفيّ الكريم . كي تسمح لزليخة بأن توليها عنايتها بما عهد فيها من عطف الابنة الحانية على أمها »

خجل سليم . وهرول ينادي زليخة . ومالبث أن أتى بها متزرة بأبهج حللها . متزينة بأبهى حليها . وقال . « هاهي امرأتي أي طبيبي العزيز — تحت أمرتك . وفي حمى حرمتك . »

قاد الحكيم زليخة إلى قاعة الاستقبال . ونكص على عقبيه إلى غرفة أمه . وهي مازالت راقدة في فراشها . أقبل عليها وقبّل يديها وجلس إليها . وقال . « اسمعي يا أمي . » وتهدج صوته . واختنق . فسكت .

— « ماخطبك يا ولدي » ؟

— « لاشيء . غير أني ذهبت إلى القلعة مبكرا — على متن « جناح الريح » وكان البرد شديدا . والهواء جليدا »

ــ هذا شأنك منذ نعومة أظفارك . فى جميع أطوارك ـ تضحى بحياتك فى خدمة أميرك . وفى حسن القيام بواجبك. حفظك الله . وأبعد عنك شرّ الأيام العصيبة . وضرّ الأقدار المريبة » .

ــ نعم يا أماه ، الأيام عصيبة . والأقدار مريبة . والآخرة قريبة . لا آخرتنا نحن بالذات . ولكن آخرة شر ذمة غدارة ، وزمرة جبارة . نواياها معيبه ، وطواياها مريبة ، شاء ربها أن تقترب من إحنتها ، وتشرب منيتها فى محنتها . . . تعلمين أن الأمير سيقلد اليوم ولده قيادة الجيش فى عيد مهيب ، وحفل رهيب ، ثم يخرج المدعوون ـ على نغمات الموسيق ونفخات الأبواق وطلقات المدافع ونقرات الطبول ، هيئة بعد هيئة ، وطائفة إثر طائفة ، وإذا ما توسطت زمرة المماليك الطريق الحجرىّ والممر الصخرى . أو صدت عليهم السبل ، وحوصروا بين الأسوار ، وأتتهم نيرانهم كما أتاهم شياطينهم ـ من بين أيديهم ، ومن بين أرجلهم ، ومن خلفهم ومن أمامهم . وعن شمائلهم وعن أيمانهم . وكأنى بهم « أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود » (٨٥ — ٦) « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها » (٣٩ — ٧١) « قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » (٣٩ — ٧٢) « إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه » (١٨ = ٢٩) « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل » (٣٩ = ١٦) أصحاب النار خالدين فيها » . وبئس مصير الفاسقين .

ـ « ياللهول ياولدى ! » .

ـ « لا تجزعى يا أماه من اجراء لازم حكيم حازم . لامعدى من تنفيذه اليوم ـ بحيطة وتكتم وإحكام . لقطع دابر أولئك المكرة الخونة الطغاة .

وإنقاذ البلاد من شرهم ، قد عجزنا عن ردعهم بهزمهم أو إقصائهم . ولمَ يضير نا أمرهم ؟ ولم يثير نا مصيرهم ؟ » .

— إذن . . فما وجه اضطرابك ؟ » .

— اضطرابي ! لا لمصيرهم ، بل لمصير شخص عزيز واحد . زُجّ فيهم وهو ليس منهم ، وأخشى أن يضيع برىء فى جريرتهم ! » .

— « زليخة ! ابنتى ! ويح قلبي . ما مصيرها ! » .

— لا أدرى ! ولكنى أحضرتها بالحيلة على أن تتولى العناية بك ، فتصنعى المرض . وسأوافيك بها ، أما مصيرها ، فبيد الله . وقام وانصرف .

بين الشك واليقين :

دخلت زليخة الحسناء غرفة الاستقبال . فهبّ يوسف وتقدم إليها : « زليخة . . أنت هنا ؟ ما أهنأ يومنا » .

خجلت زليخة وتلعثم لسانها . « يوسف كيف حالك ؟ لم أركم من زمن بعيد لأسباب لا أخالكم تجهلونها ، كم كنت أود أن أحضر فى مناسبة أسعد من هذه ، أبلغنى يحي أن الوالدة مريضة . فهرعت كى أعتنى بها ، وسأقضى النهار معها حتى يأتينى سليم بعد « الحفلة » فأنصرف معه . هذه إرادته » .

إجتاحت وجدان يوسف وهو يستمع إلى حديث زليخة انفعالاتٌ نفسية لم يتمالكها . فصرخ : « تنصرفين معه . هذه إرادته ! » وامتقع لونه .

ظنت زليخة انفعاله عامل غيرة فبادرته . « ما بك يا يوسف ؟ » .

— « لا شىء غير أنى سهرت الليل طوله أعتنى بأمى فهبطت قواى » .

— « بارك الله فيك ولداً باراً . تشجع ولا تخف ، وقد جئت للعناية بها . فانتهز الفرصة الآن واسترح قليلا حتى تسترد قواك . . » وكان « الحكيم » قد ناداها ، فخرجت . . .

أقبلت زليخة على الوالدة إقبال الإبنة البارة الحانية . وأخذتها بين ذراعيها وقبّلتها وقالت « كيف أنت يا أمى المحبوبة . لاتجزعى . وها أنذا حضرت لأكون قريبة منك . ستشفين بإذن الله وبفضل علاج طبيبنا العزيز وما سأبذل من جهد للعناية بك » .

« أهلا وسهلا يابنتى . أحمد الله أن ساقك الينا فى أحرج الساعات وأنسب الأوقات . أنت ابنتى - مربوبة زوجى - أحاطك بعنايته طفلة . وضمك إلى ولديه تحت رعايتى . ثم انتزعتك الأقدار منا . ثم أعادتك الينا . وإنا لنقطع لك عهدا حقا أنك منا - ما أبعدتك الظروف عنا - تسعدين فى كنفنا وحمانا - ماحييت وما حيينا . »

تسارعت نبضات زليخة وأحمرت وجنتاها من ترحيب فطرىّ جميل . ولكنها لم تفهم الكثير مما سمعت ومما رأت . فأطرقت مؤمّنة ممتنة وتحيرت . تحيرت من لهجة عاطفية تقطع عربون أمومة وأخوّة ورعاية وحماية . إلى مستقبل بعيد وعمر مديد . مع أنها فى حمى رجل عظيم ثرىّ قادر قوىّ . يقول إنه زوجها . وهى لن تستكشف الحقيقة بالحدس والظن والتخمين . وهى لن تستشعر شيئا . وهى لن تستكشف شيئاً . حتى يأتيها مساؤها . وحتى يأتيها بعلها . وسيأتيها مساؤها . ولن يأتيها بعلها - لافى مسائها . ولا فى غدها . ولا طيلة حياتها .

أبدت الوالدة حاجتها للنوم كى تتخلص مما قد يحرجها لو طال مع زليخة حديثها . فناولتها زليخة الدواء والغذاء . ثم غطتها بعناية ورفق . وقبلتها وخرجت .

ثم هرعت إلى يوسف وإذا به يقلبّ صفحات المصحف الشريف .

فأقبلت عليه وجلست اليه وقالت : « كيف حالك الآن. لعلك استرحت قليلا . واستردت هدوءك وقواك ، ألست ذاهبا إلى عملك أو إلى حفلة اليوم ؟ » فأجابها يوسف . « لا إلى الحفلة ولا إلى العمل ، ولست بحمد الله من المدعوين لهذا العيد المجيد ، عهد العهد الجديد ، وسيأتينا يحيى فى المساء بأخباره . »

فقالت زليخة : « وسيأتينا سليم بوصف شامل للعيد الذى كان ينتظره بفارغ الصبر وقد جهز له من الثياب الرسمية الجميلة والأوسمة والحلىّ الثمينة مايظهر به جاهه ووجاهته ، ويتقدم الحفل بالعظمة اللائقة بطائفته »

أطرق يوسف وأوقع سبابته على آية تتبعها فى كتابه ، رنت اليها زليخة وقرأت . « ولنبونّكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشرّ الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون » (٢ – ١٥٦) ثم سألت . « وماغرضك من هذا ؟ »

— « ألغرض أن الإنسان معرّض فى حياته القصيرة لكثير من الرزايا والمحن يجب أن يقابلها بثبات ، ويقبلها برباطة جأش ، ويتحملها بتصبر وتجمل وجلد ، ومامرحلة أعمارنا — طالت أم قصرت — إلا سخرة مضنية ، راحة الموت ختامها ، فاذا خوفنا حدث ، كأن أجدبت الأرض ، فشحت مواردها وتلفت ثمارها أو كأن أصابنا حزن أو مرض أو فقر أو جوع أو موت أو كأن منينا بشرّ مريب أو بضرّ عصيب وجب أن نتحمل ونتصبر ، ونتجمل ونتدبر ، وجب أن نؤمن بالله واليه مرجعنا ، وبين يديه جزاؤنا وفق أعمالنا. ولربما يكون ضرنا القريب لخيرنا البعيد ، فاذا كان هناك ضرّ قريب — فسيتبعه خير قريب ، وأنا بذلك كفيل ، والله علىّ رقيب »

— « وسليم ما كفالته ؟ » .

ـ « كفالة سليم باطله ، إغتصبها من خالقك سبحانه وحارسك ، انتزعها من أبي مربوبك ومن جدى ولىّ نعمك ومن أمى مربيتك منذ طفولتك ، إنتزعها منى أنا شريكك فى ضرع أمى ـ ومازالت ألبانها تنبض فى دمك ما نبضت فى دمى ، وتخفق فى قلبك ماخفقت فى قلبي .

إنتهز يوسف أنسب الفرص يمهد فيها المستقبل الغامض العصيب ، والمصير المريب ، ورأى أن يثابر فى الضرب على الوتر الحساس إلى أن يشعر هذه المرأة التعسة بؤسها .

فاستأنف حديثه قال . « أنت الآن قريبة منى جسما ، ولكنك بعيدة عنى روحا ... »

« بالأمس كنت فتاة طاهرة غضة زاهية ، واليوم أنت أمة ذابلة ذليلة عبدة لسيد أنانىّ ، مستبدّ شهوانىّ ، اشتراك فى السوق جارية مبتذلة ، استهواك بماله ، واستغواك بجماله ، ولولا أن عرفك أخيراً رضيعتى لما ميزك عن أماته وجارياته »

أركنت زليخة رأسها على كتفه وأمسكت بيده وقالت بصوت خافت كأنها تهمس فى أذنه سراً . « نعم أنا بائسة مادمت عن حماكم الواقى ومجالكم الراقى مصدودة ، وعن بيئتكم الطيبة وحرمتكم الحانية مردودة ، ونصيبى من الحياة كما ترانى »

« نصيب سيء ، ومصير سيء ، والآن ألا يجب أن نعالج الحاضر وننساه فى ذكريات الماضى وحماه . ألا يجب أن نثير الماضى البعيد فى المستقبل القريب نحييه ونحياه ، ألم تأزف ساعة الفصل ؟ »

ـ « أى فصل تعنى يا يوسف ؟ »

ـ « أعنى الفصل بين العزة والهوان ، والجحود والإيمان ، والخوف

والأمان ـ الفصل بين الإصلاح والفساد ، والاسعاد والاستعباد ، والعدل الاستبداد . الفصل بين الوفاء والعـــداء ، والرخاء والعناء ، والهناء والشقاء » .

وما أن أتم كلامه حتى قرعت الطبول على وقع سنابك الخيول ، فوجم كالمخبول ، إذ كان الوقع نذير الحدث المهول .

ـ « لم تضطرب يا يوسف ؟ »

ـ « أضطرب لأن يدك فى يدى ، وأنت أختى ، سويا تربينا وسويا تغذينا. وقد تسرب الحب من ضرعى أمى إلى قلبينا ، تتجسس الألبان دماً فى نبضينا. ما تحسس الدم فى جسدينا وترقرق فى يدينا »

ـ « وما شأن ضربات قلب سليم زوجى ؟ »

ـ « سليم زوجك ! إختطفك فريسة ضعيفة كما اختطف مئات السبايا أمثالك ، إستباحهن ولا عقد هناك يستحلّ الاختطاف والاستباحة والاستسفاف ! ما أنت بزوجة حقا ، ولكنك أمة جارية سبيٌ موصومة معدومة . . أما شأن ضربات قلبه فشأن ضربات قلبى ، قد تنقطع ما بين عشية وضحاها ، وإن لم يعتقك إنسان فسوف يعتقك الحدثان ، وإن لم يحررك الأنصار فسوف تحررك الأقدار »

وما كادت تنطلق من فمه الكلمات حتى انطلقت من المدافع قصفات متواليات ، ثم دوت عدة طلقات ـ مائة أو ألف ـ فى طلقة واحده .

انتفضت زليخة وانقبضت ، وارتمت بين ذراعى يوسف وصرخت :

« ماذا جرى ؟ » .

ـــ لا شيء ، هذه ضربات قلبى انطلقت بانطلاق قلب سيدك ، فأوقعتك بين ذراعىّ ـ فى حماى ـ لا فى حماه ، الطلقات فى أركان الأرض دوت ،

وزليخة فى أحضان الأخ هوت ، وضحك ، فانبسطت أساريرها ولم تفهم وضحكت، ثم أخذته من يده وهرولا إلى غرفة الوالدة واستأذناها ـ فأذنت، وكانت مضطربة ، وإذ رأتهما هدأت واطمأن قلبها لولا أن نقصها ثالثها ، وبادرتها زليخة تسائلها : « لا شك يا أماه أن المدافع قد أزعجتك ، ولكن اطمئنى ، فالطلقات الأوليات تحيات ، والطلقات التاليات الموحدات مؤذنات بتولىّ « طوسن » القيادات . . . وهلا تظن يا يوسف أن طوسن سينتقى اليوم قوّاد جيشه ؟ » .

— « ربما يكون ذلك » .

— « وهلا تظن أن يؤخذ سليم فى إحدى القيادات ؟ » .

— « ربما يكون ذلك ، ولقد يسرك أن يكون له فيها نصيب ، يرحل إلى البلاد النائية فتستريحين ، ولو إلى حين » .

— « لا يا أخى ، وإنما أحظى بفرص سعيدة أحيي فيها معكم بعض أيام صباى » .

— « حبذا لو تحققت أمنيتك أمنيتنا ، فتسعدين ونسعد بإقامتك معنا » .

— « لا . . وإنما سأتردد عليكم من وقت لآخر ، فقد لا يسمح سليم بأن أهجر سرايه إلى أن يعود ، وسيكون رجاله وحريمه رصداً علىّ ـ يومى بعد يومى ، وشهرى بعد شهرى » .

ثم أطرقت وقد ثارت شجونها ، إذ استدركت شئونها ، فى مجالها العائلى الأمين قالت :

« غفر الله لأبى وأمى ، قد فاتى على الأرض وتركانى رضيعة ، فانتشلنى أبوك من اليتم ـ فقيرة ـ ، ووضعنى فى أحضان أمك نرتشف سويا ـ أنت وأنا ـ لبنها ، فأفاضت علينا حنانها ، ربانى أبوك وأحسن مثواى ، ثم مات ،

فأتمّ جدك ما شرع فيه أبوك ،علمنى أصول الدين ، فأحسن تعليمى، ودرّسنى اللسان العربىّ القويم ، وحفظنى القرآن الكريم ، وأفهمنى تفسير آياته ، ومقاصد نزولها ، فعملت بها فى صومى وصلاتى ، ونسكى وزكاتى ، وفى سائر أعمالى ونياتى ، فضمنت طهر سيرتى وبرء سريرتى ، وإذ أنا أرتع فى الرياض الغناء . وكلى أمل فى حياة مليئة بالعزة والهناء ـ يختطفنى من يبيعنى فى الأسواق بيع السلع . وأضيع عنكم كى أقع فى وكر هذا المملوك المفتون » .

«رحم الله الشيخ الصديق ، هذبنى وأدبنى ، فأحسن تأديبى ، وما زالت تعاليمه مطبوعة فى قلبى ، ولكن ضاع منى مجال تنفيذها وافية ، والعمل بها كاملة ، ولقد عرّفنى مركز المرأة المسلمة من إسلامها ، ما لها من حقوق ، وما عليها من واجبات ، وفق سنن الدين وآيات الذكر الحكيم : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما » (٢ ـ ٣٥) فترك سبحانه لها ما ترك للزوج من حرية التمتع بالحياة وزينتها وبالأكل منها رغداً حيثما شاءا وكيفما شاءا ، وقد خلقهما جسداً واحدا وروحاً واحداً : « أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » (٢٦ ـ ٧) والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرّياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما » (٢٥ ـ ٧٤) فوهبه الله إياها ، ووهبه منها بنيه بنيها قرة عين ، وأوصاه بالذهاب معها إلى أقصى حدود الرأفة وإصلاح ذات البين : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفّق الله بينهما إن الله كان عليما خبيراً » (٤ ـ ٣٥) « وإن تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفوراً رحيما » (٤ـ١٢٩) وقد ساوى تعالى بينهما فى التمائق والصفاء ، والوفاق والوفاء ، وفى حاجة كل منهما للآخر : « هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم » (٢ـ١٨٧) وقد

أصبحا نفساً واحدة يتناجيان ويتعاونان ، ويتآزران فى العيش ، ويتلابسان فى الحياة كل منهما للآخر قرة عين ، وقد جعل الذكر من أنثاه زوجاً كريماً يسكن إليها ولسكن إليه ، ويعطف عليها وتعطف عليه : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة »(٣٠ـ٢٠) ولم يرفعه سبحانه ولم يجعله عليها قواماً كى يستأثر دونها بالنور والعلم والدين ورغد العيش والسيطرة على الأرض والتمتع بخيراتها ، ولم يجعلهما ذكراً وأنثى إلا لكى يتحابا ويتناسلا رجالا ونساءاً : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » (١٦ـ٧٢) وقد جعل لكل من الزوجين سبيله ، وكانت فروضهما واحدة ، ومتعتهما واحدة ، وجزاؤهما واحداً : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » (٥٧ـ١٢) .

ساوى سبحانه الأنثى بالذكر فى جميع الفروض ، وقد سن الدين ما لها من حقوق ، وما عليها من واجباب، وهى لن يتسنى لها القيام بشتى الفروض والواجبات إلا إذا قرأت الكتاب صحيحاً ، وفهمته صحيحاً ، وطبقته على الحياة العملية صحيحاً ، بلا تأويل وبلا تضليل، وهى لن يتسنى لها ذلك إلا إذا تثقفت تثقيفاً راقياً ، وتوطد خلقها ، وتكونت فيها نفسية بارزة راجحة ، وتفتق ذهنها لشتى العلوم ، فتعرفت فى تعمق وإسهاب بكل ما أومأ إليه الكتاب فى إجمال وإيجاز ، مما يتداخل فى جميع تلك العلوم ، وهى لن يتسنى لها ذلك إلا إذا شحذ فكرها ، واستنار عقلها ، وتهذبت حساسيتها ، فوعيت جمال الطبيعة التى أبدع الخالق صنعها وصبغها ، وقد رقق الشعر شعورها ، ورق

وجدانها ، ونظم مقالها ، وقد قوّم النثر كلمها ، وهذب قلبها ، وملأ الأدب جوانحها ، وأحيا الدين جوارحها ».

« أعطاها الله قلبا خفاقا يهذبه الأدب . ويقوّمه الدين . ويلينه الحب، تشارك بعلها بلهواه ، وتكون دليل هـداه ، تخفف عنه من الغمّ ما دهاه ، وتزيل عنه من المرض ما أبلاه . ومن الداء ما أعياه . وإذا رزئت فيه بكته ورددت رثاء صفية الباهلية فى بعلها : —

« كنا كغصنين فى جرثومة بسقا ... حيناً على خير ما تنمى به الشجر
حتى إذا قيل قد طالت فروعهما ... وطاب قنواهما واستمطر الثمـــر
أخنى على واحدى ريب الزمان وما ... يبقى الزمان على شيء ولا يذر
كنا كأنجم ليل بينها قمـــر ... يجلو الدجى فهوى من بينها القمر »

« عرفت كلّ ذلك وأكثر من ذلك ، ولكنى فقدت مجال العمل به ، فعمنى الحزن ، وأضنانى الأسى ، وقد تذوقت الحرية البريئة ولفاتها فى حمى الدين وبإرشاد الكتاب المبين ، وبينا أنا أمرح فى الظل الوريف وأهازيج الحفيف . مؤملة التمتع بما منّ علىّ الدين الحنيف من حقوق تمتعى بما فرض علىّ من واجبات . إذا بالشباك تقتنصنى. ويكون مصيرى المحتوم أمة لمملوك عىّ . يسيمنى شرّ الشقاء وضرّ البلاء . وقد حرّم علىّ مبارحة الدار. وكشف النقاب وإزاحـة الستار . ومازلت فى نعومة الأظفار وليونة الأعمار . فلم أجد بدّاً من أن أقيس غرفتى ليلى ونهارى . فى جيئتى وذهابى . علنى أفرج عن كربى فى وحدتى . وفى فرقتى عن قومى وأحبتى . وأهلى وأسرتى . وفى ابتعادى عن بيتى. وحرمانى حريتى - وحريتى هى حياتى ، وحياتى هى حريتى »

« أنتقل من غرفة إلى غرفة لعلى أعزّى نفسى بما أرى من أثاث وثريات وصور، ولكنى أرى فى الأثاث والثريات والصور أجلى برهان على ذلتى .

ثم أذكر كم فأراني حيرى . تتجاذبني فترات من الأمل والفرح . وفترات من اليأس والترح . وأجد نفسي حيرى بين التحمل والتضجر . وأجد أنفاسي حيرى بين التغلغل والتفجر . وأجد دموعي حيرى بين الجمود والانبجاس والترقرق والاحتباس . وأجد قلبي حائراً بين التجمل والقلق . ومضجعي حائراً بين النوم والأرق . ولسان حالي يقول :

« الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصيّ طيّع
يتنازعان دموع عين مسهّد هذا يجيء بها وهـذا يرجع »

« أسير في عزلتي بين الجدران خائفة وجلة . خافية توجّعاتي . ساترة تفجعاتي . تفجعات قاسيه . وتوجعات عاصية . لن تزول ما زالت ذكريات أحبتي معلقة في مخيلتي . وأشعر بأشباح أمي وأبي . وأبيك وجدك وأخي . تحوم حولي كأنها تتلامس . وفيما بينها تتهامس . ثم أتلفت يمنة ويسرة . فلا أرى أشباحا ولا أجد أرواحا . ولا أشعر تلامساً ولا أسمع تهامسا . فيقشعر جسدي من هول ما لا أجد . كما يقشعر من هول ما يجد . ويجمد الدم في عروقي من وحشة الفراغ الذي يحيط بي في عزلتي . كما يجمد من مؤانسة الأشباح لي في وحدتي » .

« وبينا أنا هائمة في نكبتي ، جاثمة في كربتي ، وقد هجرني الأمير طيلة نهاري وحتى الهزيع الأخير من ليلتي ، إذا به يفاجئني وقد أفقده الخمر رشده ، وأفرغ الميسر جيبه ، ينهرني ويهددني ، وهو إذا صليت سخر مني ، وإذا كتبت رسالة مزقها ورماها إرباً في وجهي ، وقد أغلق عليّ الأبواب والمنافذ ، وقفلني سجينة في ذلتي ، فحرمني من حق التمتع بجمال الطبيعة التي عشقتها في طفولتي وفتوتي ، وطالما مرحت في بحبوحتها وظلال دوحاتها ، على جوانب جبالها وضفاف قنواتها خلال زهور وديانها وثمار بساتينها ،

« وهو لن ترضيه سوى أحاديث الخيول المطهمة والمعاطف المطرّزة والسراويل المزركشة والأسلحة المرقشة ، ولن تزهيه سوى الحلىّ الثمينة والأحجار الكريمه ، ولن تشجيه سوى أقوال الفحش والخنا وسير الوجبات الفاخرة اللذيذة وأحاديث السرية السمهرية العزيزة ، ولن يغريه سوى الملق والتذبذب والزلف ، ولن تطربه سـوى المؤامرات الخطيرة والفتن المضيرة والمكايد المثيره »

« ولايخفاك مايبيته هو وأمراؤه من أهوال سينفذونها يوم يرحل الجيش برجاله وعتاده وقواده إلى البلاد العربية ، وتزحف قواتهم من أدانى البلاد وأقاصيها ، ومن جوانب العاصمة ونواصيها ، وتتألب على مواطننا « العزيز » للقضاء عليه ، واسترداد سلطانهم بعد قلب سلطانه ، وقد رسموا مشاريعهم ، وتقطعوا فيما بينهم أقاليمهم ـ لكل منهم اقليمه ، يحكمه وفق ارادته وأغراضه ، وقد شرعوا يفكرون فى التودد للانجليز لتأييدهم وشدّ إزرهم ، بعد أن خذلوهم لأول مرة ـ إذ خشوا أن يأخذهم العزيز على غرّة . فى كرة وفرّة ـ الجيش يظاهره والشعب يناصره ، أطلب إلى المولى تعالى أن يؤوبوا من فتنهم بالخذلان والخسران ، فهم لو نجحوا ـ فويل للأمة المصرية ـ أمتى ـ من كيدهم وغيظهم ، وطغيانهم وظلمهم ، وطمعهم وجشعهم ، واستبدادهم واستعبادهم ، وجورهم وفجورهم . »

« والآن لاحيلة لى فى غير الصبر والرجاء . حتى يأتينى الفرج والعزاء »

فأجابها يوسف مطرقا . « الفرج باذن الله قريب . وهو سبحانه علينا رقيب ولدعواتنا الصالحات مجيب . « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . « أولئك يؤتون أجرهم بما صبروا »

* * *

عاد الحكيم إلى بيته فوجد أمه جالسة جلستها العائلية بين زليخة ويوسف. قال « أسعد الله مساءكم . ها أنذا أتيتكم لأستريح معكم بعد أن يطمئن قلبي إلى أمي » . وأمسك بيدها وقال . « نحمد الله أن هيأ الأمور على مايرام . فأشفي أمي من السقام . وأنجي أمتي من الطغام . نفذ العزيز برامج البلاد فنجحت . ونفذ برامج زليخة فنجت » ثم مدَّ يديه اليها وأطبق بهما على يديها بترفق وقال . « إسمعي يافتاة مصر ! لقد عامل « العزيز » سليما وزمرته بما أعتقك منه ومنهم ، وأقصاك عنه وعنهم ، وقد ضمن لك مالك ، على أنك أصبحت من اليوم ولا شأن لك بمن يسمى سليما أو يكنى مملوكا ، بعد أن تحررت . وانفصمت بينكما العرى إلى أبد الآبدين . فلا تخافيه . ولا تفكري فيه . واطمئني لمستقبل سعيد حرة طليقة في حمى مليكنا . بعد أن أنقذك من جلادك . وقد أطال عليك إلى الأبد غيبته . فدفع عنك إلى الأبد كبرياءه وغروره ووشايته . وميسره وسكره ودعارته . وإفكه وكذبه وغوايته . وحواريه وجواريه ونسوته . ورفع عنك فظاظته وقسوته وغلظته . وفحشه ورجسه وضلته . ومنسه وفسقه ونميمته . وظلمه وتهتكه وخيانته »

ثم خيم على الغرفة سكوت رهيب . وكأن القلوب الأربعة تتجاوب ضرباتها . وكأن دماءها تتناوب نبضاتها . وقد أطرقت زليخة متحيرة . وهي لم تفهم الكثير مما سمعت . وهي لم تقو على استفسار الكثير مما جهلت أو تريبت . وقد ضاق مجال حدسها وتخمينها . وجفت ووجلت . ولكنها أمنت واطمأنت . ثم تجرأت وتشجعت . وقد أعتقت وتحررت . وهي لا تعلم كيف أعتقت وكيف تحررت . وأخذت بيد الحكيم وقالت : « أشكرك يايحيي »

حقق أمنيتها وأنقذ قوميتها

قصة جميلة ابتدعها الخيال . قدّرتها المثل الأعلى للفتاة المهذبة الكاملة. والمرأة الراقية والزوجة الوفية البائسة .

ثم ثار وجدانى مذ علمت أن القصة إن هى إلا صورة مجيدة لمصر الفتية. أعتقها « العزيز » من شر طغاتها . وخلصها من ضرّ بغاتها . وقد حطم أصفادها . وأطلقها ناجية من أغلالها . لتنعم فى بحبوحة حرّيتها .



صرح محمد يقيمه والفاروق يدعمه

* * *

وطد العزيز سلطانه بعد أن أقصى العناصر الأجنبية الهدامة . وأدمج الطيبة منها فى الأمة . فأصبحت مصر المصريين ـ لا سيادة عليها لأجنبى ـ فرنسى كان أم انجليزى . تركى كان أم شركسى .

استحضر من قومه المخلصين من يعتمد إليهم فى تأييده وشدّ إزره . وهو لم يميز بين مسلم وناصرى. شرقى وغربىّ . استقدمهم بمحض إرادته واختياره . وكان سديداً فى إرادته . موفقاً فى اختياره . إذ انتقاهم من الأسر الطيبة التى أولته عطفها وحبها . وعاهدته وفاءها وإخلاصها . استخلصهم ممن عرف فيهم الاستقامة والأمانة وإنكار الذات وكبح جمحات الشهوات . وتحمل مشاق الحياة ـ حياة العمل والكد والنشاط ـ فى سبيل خير العباد ورخاء

البلاد. وقد وجد خيرعون لتنفيذ براجه فى أبنائه ابراهيم وطوسن واسماعيل. وفى بعض ذوى قرباه المخلصين .

وقد أدعم هؤلاء بجهابذ الأجانب الذين استحضرهم للاستعانة بخبرتهم السياسيةوالحربية والعلمية والاقتصادية والفنية والهندسية والطبية والزراعية. وذلك عدا الذين نشأوا بعبقريتهم ونبوغهم من أبناء مصر النجباء . ممن كدوا فى مضمار العلم والعمل . وقد التف هـذا الجمع المختار حول محمد . يؤيده الأعيان والعلماء وغيرهم من الوطنيين المخلصين . فكانوا جميعاً لأريكته سياجا منيعا يدعمه جيش مصرى صميم . وأسطول مصرى صميم .

تخلص العزيز من غرمائه فرفع سيف مصر وصوتها ـ فى وجه سلطانها ـ فى سبيل استقلالها . وإعلاء شأنها . ووقف ولده ابراهيم القائد العتيد والبطل الصنديد بين رجال جيشه غداة عودته من حرب المورة التى زُجَّ فيها متورطا لإرضاء سلطانه . قال يهيء النفوس لعهد جديد . فى ظل استقلال سديد : « ماذا استفدنا من السلطان وحاشيته . نحن جميعا أولاد محمد على . ربّانا وعلمنا وهذبنا وحمانا . وقد أكلنا من خبزه . ورتعنا فى عزه . إكتسب استقلالنا بحدّ سيفه . ولاملك لنا غير ملكه » .

وما أروع صرخة « العزيز » يوم استشعر مؤامرة الدول على استقلال بلاده : « لن أترك للدمار والبوار ما شيدت من منافع ومرافق حيوية طوال ولايتى . مما كلفنى وكلف مواطنى المصريين جهوداً جبارة وأموالا طائلة . وهاهى الدور الصناعية والمعاهد العلمية والطبية والهندسية والزراعية والفنية على النهج الأوروبى والنظام الراقى أسسناها . وهاهى الطرق والترع والجسور والموانىء خططناها وفتحناها وبنيناها . وهاهى مزارع القطن والقصب ومصانع السكر والصوف والحرير ومناجم الفحم والحديد أنشأناها.

إن قلبي لينفطر أسى إذا ما تخيلت أن ثمار جهودى وجهود قومى ضائعة وسائرة إلى الفناء ـ تلعب بها الأهواء من بعدى كما تشاء » .

وما أوقع صرخته الأخرى : « الطفرة مستعصية فى رقىّ الأمم ، لقد قمت ببعض الشىء لمصر ، فأصبحت تمتاز على ممالك كثيرة فى الشرق والغرب ، حقا يعوزنا كثير مما لا نزال نجهله ، ولذا فإنى مرسل من شبابنا فريقا مختاراً للتزود بالعلوم والصناعات فى البلاد الأوروبية الناهضة ، فعليهم أن ينظروا إلى الأشياء بأنفسهم ، ويعملوا فى سائر المهن والحرف بأيديهم ، ويختبروا الفنون والعلوم بثاقب تفكيرهم . ويبحثوا فى أسباب رقىّ غيرنا من الأمم ويمعنوا النظر فى سرّ تقدمهم ومدنيتهم . فيعودون وهم مزوّدون بما نفتقر إليه من علم وعمل يدرجان بنا إلى ذروة الفلاح والرقىّ والنجاح » .

اطمأن العزيز إلى استتباب ملكه فوجب عليه أن يصلح أمور بلاده حتى يرقى بها إلى مصافّ الدول العظيمة ، وهو يعلم يقينا أنه لن يحقق بغيته إلا بإنشاء جيش قوىّ من أبناء مصر الأمناء ورجالها الأشداء . قال كلوت بك فى هذا الصدد : —

« لا يتهيأ المرء أن يشاهد الأثر المباشر للحرب فى المدنية كما يشاهده فى مصر فقد كان عليها أن تشرع فى تنظيم جيشها والنهوض بها إلى المستوى اللائق بها . وأدرك محمد علىّ فوائد النظـــام على مقتضى الفنون العسكرية الحديثة . ورأى أنه لا يتيسر له صيانة مركزه إلا بقوة السلاح . فوجه تفكيره إلى تأليف جيش نظامىّ يكفل له الأمن والطمأنينة فى الداخل ، والقوة والنفوذ فى الخارج . وقد أنتج هذا الجيش الجديد ثماراً يانعة عادت على مصر بالفلاح . إذ تعودت على النظام وهى لم تألف سوى الفوضى . وكانت دائماً فريسة لجيوش من الأتراك والأرنؤود ديدنهم إشعال نار الفتن

وارتكاب المظالم والموبقات. وكان من ثمار الجيش أيضا اجتماع الأفراد تحت لواء الإتحاد مما أدّى إلى النهضة والقوة للشعب المصرى . وصيره ذا روح وطنية . وبعث فيه الطموح إلى المعالى والوثوق بالنفس والاعتماد عليها ـ ذلك الشعور اللازم لكل أمة حيّـة مستقلة . وقد أوجبت الضرورة نشر التعليم بفروعه وإنشاء المعامل ودور الصناعات المختلفة وإرسال البعثات من الشبيبة المصرية إلى البلاد الأوربية لاستقاء العلوم من مناهلها وتلقى الفنون والمهن التى تمسّ الحاجة إليها . وقد عهد محمد على تأليف جيشه النظامىّ إلى ضباط فرنسيين وإيطاليين وقفت الحوادث السياسية فى سبيل بقائهم فى بلادهم . وطوّحت بهم إلى الخارج . فارتموا فى أحضان الشرق . وقصدوا العيش فى أكنافه . فشل العزيز بادىءذى بدء . ولـكنه ازداد شعوراً بضرورة إنشاء الجيش الحديث . وبعد الاستهداف لـكثير من الصعاب نجح فى مشروعه. ولعل المصريين أكثر الناس صلاحية واستعداداً للجندية الممتازة . فهم بوجه عام أشداء أقوياء البنية متصفين بالقناعة والجلد على تحمل المشاق والخضوع والطاعة والخلود إلى الصبر عند عثور الجدّ والإقدام على الخطر واقتحام النيران .»

هو العلم الذى تفديه مصر :

ولأول مرة فى التاريخ الحديث صحا الشعب المصرى من غفلته . وثاب إلى رشده . وقد تنسم شذا الحرية فى صافى جوه . ورصد كواكب الهداية فى زرقة سمائه . وعاين معالم المدنيه والرقىّ فى ثابت أرضه . فتفتق ذهنه إزاء ماوضعه « العزيز » من نظم حديثة وقد شيد للوطنية صرحا منيعا

« رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرع لاينال طويل »

وركز على قمته شعلة الهدى . ومازال أبناء مصر يتهافتون عليها . يصطلون بنارها . ويستضيئون بأنوارها . ويستهدون بضيائها . حتى جاءه « الفاروق » يدعم جدرانه . ويشدّ بنيانه . ويبثّ فى الشعلة روحه ووجدانه

ظهر الشعاع ساطعا فى قوة جماله وعزة مجاله . وقد أتانا مستقبل « العزيز » فى « الفاروق » للصرح بخير مُسند وللقبس بخير موقِد . إنّمناه الشعلة وها هو ذا يذكيها بأنفاسه ويوقيها بأقباسه . فكان « الفاروق » شفيعنا فى أنوارنا . يستمدّها من الكوكب الدرّى . ويمدّ بها قلوبنا . فينير بصائرنا . ويهدى ضمائرنا .

***

وفى الختام لايسعنا إلا أن نتغنى بما أنشده شاعرنا من ربع قرن . ممجدين عرش فاروقنا :

« جمعت الناس حول العرش علما ... بأن لمصر فى العرش اعتصاما
إذا طافوا ببيت الملك يوما ... سبقتهمو إلى الركن استلاما
تضائل شخصك الضاحى وقاراً ... وتخفض رأسك العالى احتشاما
وكان العرش هامة كل قوم ... وإن كانوا أجلّ الناس هاما
هو العلم الذى تفديه مصر ... ونحن الجند فى العلم انتظاما

والحمد لله رب العالمين

المؤلف



فى ٣ شعبان سنة ١٣٦٩
(٢٠ مايو سنة ١٩٥٠)

اسكندر عزيز

ملحق الكتاب

كانت الجدّة جادة حين قالت لحفيديها : « وكأنى بالأسرة تذهب فى الانقباض . وتمضى إلى الانقراض . من عهد « العزيز العتيد » . إلى عهد « الفاروق المجيد » ! ترى ! مايكون شأنكما من تراثها فى حماه ؟ وما يكون حظكما من ذكرها فى قراه ؟

جاء يحيى ويوسف كاشف . فالحق « عزيز مصر » أو لهما بمعيته طبيبا أمينا وتابعا وفيا . ذكره الجبرتى فى مناسبات كثيرة وذكر هو ويوسف كاشف فى دفاتر المعية (سنة ١٢٤٢ دفتر ٧٣٢ وسنة ١٢٤٧ دفتر ٧٦٨ وسنة ١٢٥٢ دفتر تركى ص ١١٦) وتوفى سنة ١٨٣٦

ثم جاء ابنه اسكندر ولد بالقاهرة فى ٢٥ يوليه سنة ١٨٢٥ وأرسله « العزيز » فى بعثة علمية وفى غرة شوال سنة ١٢٦١ ذكر بدفاتر المعية جريدة استحقاقات ذوات كرام ديوان خديوى ورقه ١٣٠ عين ٢ وجه ١١٦ الخ صاغقول أغاسى إسكندر ترجمان بالمعية من تاريخ قدومه من بلاد الأفرنج (لوندره) وصدرت الارادة السنية بذلك فى ٩ جا سنة ١٢٦٢ وفى سنة ١٢٧٠ الحق بأركان حرب سليمان باشا قائمقاما فاميرالايا ثم بنظارة الخارجيه وأحيل إلى المعاش فى ١٦ يونيه سنة ١٨٨٤ وقد أشاد بمآثر الأسرة المحمدية العلوية فى مذكراته وأحاديثه وتوفى فى ٩ ابريل من السنة المذكورة عن ابنه يوسف عزيز بنيابة المحكمة المختلطة بالاسكندريه ولد بالقاهرة فى ٢٠ يونية سنة ١٨٥٣ وتوفى بالاسكندرية فى ٢٠ أغسطس سنة ١٩١١ قاضيا بالمحاكم المختلطة عن أولاده .

يحيى ولد بالقاهرة فى ٢٦ أغسطس سنة ١٨٨٣ وتوفى فى سنة ١٩٢٤ محاميا .

وكامل عزيز ولد بالإسكندرية فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨٨٥ وتدرج فى الترقى رئيساً لنيابة استئناف مصر فرئيساً لمحكمة الإسكندرية الوطنية فمستشارا بمحكمة استئناف أسيوط وتوفى فى ٢٦ يولية سنة ١٩٣٦

وفؤاد عزيز ولد بالمنصورة فى ١٤ إبريل سنة ١٨٩٥ وتوفى فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٤٧ قاضياً درجة أولى فى محكمة الإسكندرية الوطنية .

واسكندر عزيز واضع هذا الكتاب ولد بالمنصورة فى ١٩ يونية سنة ١٨٩٢ وواضع رسالة فلسطين سنة ١٩٤٨ وكتاب « الفيض بعد الغيض » وهو سفر أدبى من أربعة أجزاء لم ينشر بعد - يوسف عزيز ابنه وخاتم عصب الأسرة . توفى فجأة ليلة ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٤٩ فى عزّ شبابه وكامل صحته . سقط مجاهداً فى ميدان العلم والأدب . وكأنه استشعر دنوّ ساعته قبيل اقتراب يومها . فكان حديثه لأمه . « رأيت فى منامى أنى ذاهب إلى حيث أتخلص من تكاليف العالم الأرضىّ الزائلة وتكاليفه الزائفة . أذهب حاملا فى ثنايا روحى إلى العالم العلوىّ شطراً من روحك : « الطهر والتقى » . وقد سمعت هاتفا قد سنّيا من نور يقول : « إتبعنى ولا تتركنى » .

وليلة وافته منيته أنهد أباه رثاء الشاعرة العربية فى ولدها وكأنه استشعر رثاء أمه له فى غدها .

« أحثو التراب على مفارقه وعلى غضارة وجهه النضر
حين استوى وعلا الشباب به وبدا منير الوجه كالبدر
ورجا أقاربه منافعه ورأوا شمائل سيّد غمر
ربيته دهراً أفنقه فى الهجر أغدوه وفى السحر
ما زلت أصعده وأحدوه من قلّ موماة إلى قفر
هربا به والموت يطلبه حيث انتويت به ولا أدرى

وإذ راعنى صوت هببت به   وذعرت منه أيما ذعر
وإذا منيتــه تساوره   قد كدحت فى الوجه والنحر
وإذا له علــق وحشرجة   مما يجش به من الصدر
لوقيل تفــديه بذلت له   مالى وما جمعــت من وفر
أوكنت أقتدر على عمرى   آثرته بالشطر من عمرى
لوشــاء ربى كان متعــنى   بابنى وشــدّ بارزه إزرى
لايبعدنك الله ياعمــرى   إما مــضيت فنحن بالاثر »

وما مضت ساعات ثلاث حتى استسلم هادئا بين ذراعى أخته وأمه

« والموت يقبضه ويبسطه   كالثوب عند الطىّ والنشر »

ولـكن

« هذى سبيل الناس كلهم   لا بدّ سالـكها على سفر »

وإنا إزاء مساهمة الحفيد يوسف فى وضع هذا الـكتاب، وإقراراً بفضله وحفظا لذكره، وجب أن نختتم الـكتاب بصورته.

أغدقه الله برحمته



وأسكنه فسيح جنته